الثقافة

AL-THAQAFA

صاحب الامتياز
الدكتور أحمد أمين بك

الإدارة
١٢ شارع سعد زغلول ، القاهرة . تليفون ٤٢٩٩٢ — ٥٦٧٦٩

رئيس التحرير المسئول
محمد عبد الواحد خلاف بك

العدد ٦٣٩ | الاثنين ١٨ من جمادى الآخرة سنة ١٣٧٠ — ٢٦ من مارس سنة ١٩٥١ | السنة الثالثة عشرة

مأساة البترول الإيرانى

للدكتور محمد محمود الصياد

خطت إيران فى الأيام الأخيرة خطوة جريئة ، كان لها أثرها الضخم فى دوائر المال والسياسة والاقتصاد العالمية ، فقد وافق برلمانها بمجلسيه على قرار يقضى بتأميم صناعة البترول فى كل جهات إيران . وجاء هذا القرار تلبية لرغبة وطنية قوية ، كان يحول دون تلبيتها وجود الجنرال « رازم آره » على رأس الحكومة . حتى إذا ما اغتيل سارعت لجنة الشئون البترولية فى البرلمان إلى الموافقة على سياسة التأميم ، ولما يمض على مقتل « رازم آره » أكثر من يوم واحد ، وكانت اللجنة قد مضى على تشكيلها وقت غير قصير ، وكانت قد تلت الموضوع الكلفة بدراسته بحثاً وتمحيصاً ، ولكنها لم تجرؤ على إعلان موافقتها على التأميم فى حياة « رازم آره » ، لأنه كان من أشد معارضى هذه السياسة . وكان يرى أن إيران ليست فى المركز الذى يسمح لها بانتهاج مثل هذه الخطة ؛ فهى فى حاجة إلى كل ما يتعلق بصناعة البترول وليس لديها شىء من مستلزمات هذه الصناعة المعقدة ... ليس لديها المال ، وليس لديها المعدات ، وهى لا تزال فقيرة فى الخبرة والخبراء .

ولم يكن مقتل « رازم آره » وما تبعه من المبادرة بتأميم البترول سوى نهاية فصل من مأساة متعددة الفصول ، بدأ تمثيلها على المسرح الإيرانى منذ مطلع هذا القرن ، وما زالت المسرحية لم تتم فصولها . ولقد وقف الشعب الإيرانى من الفصول الأولى موقف المتفرج ، وربما كان بين أفراده من سر من الرواية وصفق لها . فقد كان هذا النوع من التمثيل جديداً على إيران ، ولم يكن وعى الشعب قد بلغ الحد الذى يساعده على التكهن بما يمكن أن يتلو الافتتاحية من فصول .

كان هذا فى سنة ١٩٠١ حينما استطاع وليام نوكس دارسى William Knox D'Arcy أن يحصل على امتياز لمدة ستين عاماً للبحث عن البترول فى مساحة تبلغ نحو نصف مليون ميل مربع فى غرب وجنوب إيران ، أى نحو أربعة أخماس مساحة إيران كلها . وكان هذا لقاء مبلغ زهيد

قالوا

الأشياء في ذاتها ليست كبيرة ولا صغيرة ، وما الفكرة التي عندنا عن سعة العالم إلا فكرة بشرية لا ترتكز على أساس متين ، ولو صغر العالم فجأة فأصبح في حجم البندقة ، مع احتفاظ كل شيء فيه بنسبته ، لما شعرنا قط بهذا التغير ، فالنجم القطبي سيظل معنا داخل البندقة ، وستظل أشعته الضوئية كما كانت تقطع طريقها في نصف قرن أو يزيد لتصل إلى أرضنا التي تستحيل إلى شيء يقل حجمه عن حجم الذرة ، ولكنها لن تنفك تسبق بنفس السكينة من السماء والهموم التي نرويها في يومنا هذا . (د . ا . فرانس)

سمعت هذا الحديث بين صديقين :

ا — لقد تخطيت على صاحبي .

ب — ولم ؟ .

ا — لأنني قلت فيها أشياء لا يصح أن تقال .

ب — لسوف أصلحها ؛ لماذا قلت فيها ؟ .

ا — قلت إنها تغالي في زينتها .

ب — الأمر ميسور ، ثم ماذا ؟ .

ا — قلت إنها قبيحة الشكل ! ...

ب — دعني ، فليس لهذا من دواء ! ...

(شانفور)

إن التعود على البؤس شر من البؤس نفسه ، وإن التعود على الذل شر من الذل نفسه . (كامو)

إن حب الحياة يزداد كثيراً لدى الإنسان إذا ما انهالت عليه المصائب . (كامو)

إذا تأملت في تاريخ أمة من الأمم ، وجدت أنها تمر بصور طويلة من الحروب والفوضى والخراب لكي تحصل على بضع سنين فقط من الأمن والطمأنينة .

(بوفون)

كلمة الحرية ، لو تعلمون ، كلمة جوفاء لا معنى لها إطلاقاً ، فليس هناك أبداً مخلوقات حرة بمعنى الكلمة ، وليس بنو البشر إلا آلات مسيرة حسب نظام الطبيعة العام ، ونظام التعليم وتسلسل الحوادث . (ديدرو)

جمعها : م . ع . م .

من برامج الإذاعة الثقافية والفنية

(من الأحد ٢٥/٣/٥١ إلى الجمعة ٣٠/٣/٥١)

اليوم	الساعة	
الأحد	٩٫٤٥ مساء	قصة مصرية : للأستاذ صلاح ذهني
	١٠٫١٥ مساء	جوهان باخ : (برنامج موسيقي)
الاثنين	١٠٫٣٠ صباحاً	قصة : للأستاذ أمين غراب
	١٠ مساء	حديث (في المكتبة العربية الحديثة) : محمد شفيق غربال بك
الثلاثاء	٧ مساء	حديث (النظم الاجتماعية في الإسلام) : للأستاذ محمد خلف الله
الأربعاء	٩٫١٥ مساء	حديث (اجتماعيات) : البكري أباظة باشا
الخميس	٧٫٤٠ مساء	« مختار الثالث » : إخراج الأستاذ يوسف الحطاب
	٩٫١٥ مساء	حديث (الربيع في الأدب الإنجليزي) : للأستاذ جمال الدين الرمادي
الجمعة	٩٫٣٠ مساء	حديث الجمعة : للدكتور محمد عوض محمد بك

دفع للشاه ، ولم يتجاوز العشرين ألفاً من الجنيهات ، على أن تحصل الحكومة الإيرانية (الفارسية) على حصة سنوية قدرها ١٦ ٪ من صافى أرباح أى شركة أو شركات قد تتكون بقصد تنفيذ شروط الامتياز .

بدأت أعمال التنقيب واستمرت تتعثر سنوات ، لأن المنقبين عن البترول لم يكونوا موفقين فى اختيار الجهة التى بدأوا أعمالهم منها ، ولكن لم تمض أعوام ستة حتى تدفق الذهب الأسود من أول بئر إيرانية للبترول . وترتب على هذا أن تألفت شركة البترول الإنجليزية الفارسية (الإيرانية) فى أبريل سنة ١٩٠٩ برأس مال قدره مليونان من الجنيهات ، ومع أن رأس المال كان إنجليزياً خالصاً ، إلا أن لفظ « فارسية » أضيف إلى اسم الشركة ، وهكذا تفعل دائماً شركات الاحتكار ، وعندنا من الأمثلة الشىء الكثير .

وسارت الشركة فى استغلالها سيراً بطيئاً ، فلم تصبح ذات أثر فى سوق البترول العالمية إلا فى سنة ١٩١٢ . ثم قامت الحرب العالمية الأولى وبدأ البترول يلعب دوره فى المعركة ، ورأت الحكومة البريطانية أن تضمن مورداً ثابتاً من البترول ؛ فساهمت فى شركة البترول الإنجليزية الإيرانية بنصف رأس مالها ، ولقد لقى هذا الاتجاه كثيراً من المعارضة فى أول الأمر ، ولكن الأغلبية البرلمانية أقرته فى مجلس العموم ، ومنذ ذلك التاريخ أصبحت الشركة وثيقة الصلة بالحكومة البريطانية ، وأصبح لمأساة البترول الإيرانى وضعاً جديداً ؛ فلم تعد مسألة اقتصادية محضة بين الحكومة الإيرانية وشركة من شركات الامتياز ، بل أصبحت مسألة سياسية أيضاً ، وأصبح أى خلاف يحدث بين الحكومة الإيرانية والشركة خلافاً تمثل فيه بريطانيا طرفاً ثالثاً ، أى أنه يصبح خلافاً دولياً لا خلافاً محلياً .

استمر إنتاج الشركة يتزايد حتى لقد بلغ ٤٦ مليون برميل فى سنة ١٩٣٠ ، وكانت إيران قد بدأت تفهم بعض الجوانب الخفية للمأساة التى تمثل على مسرحها ، وتكشف لها أن اتفاقية سنة ١٩٠١ أصبحت عتيقة ولم تعد صالحة ؛ فبدأت منذ سنة ١٩٢٨ تطالب بزيادة اشتراكها فى الامتياز ، ولكن الشركة رفضت أن تعدل شروطه بما يتفق مع وجهة نظر الحكومة الإيرانية ، وفى سنة ١٩٣١ استؤنفت المفاوضات على نطاق ضيق يهدف إلى تنظيم الطريقة التى يتم بها حساب أرباح الشركة حتى تضمن الحكومة حصيلتها الحقيقية كاملة غير منقوصة ، وكان هذا مطلباً عادلاً لم تجد الشركة أى مبرر لرفضه فقبلت الاتفاق ، ولكنها من جهة أخرى تلاعبت بطرقها الخاصة ؛ فإذا بحصيلة الحكومة تنخفض فى سنة ١٩٣٢ إلى ثلث مليون جنيه بعد أن كانت ١٫٤ مليون جنيه فى سنة ١٩٢٩ .

وكان الكيل قد طفح فلم تجد حكومة إيران أمامها إلا أن تنذر الشركة بإلغاء عقد الامتياز ؛ فهى حكومة مسئولة لا يمكن أن تقف مكتوفة اليدين أمام إهدار المصالح الإيرانية ، ولكنها مع هذا لا ترى مانعاً من أن تمنح الشركة امتيازاً جديداً بشروط جديدة لو أن الشركة قدمت من الضمانات ما يكفى لصيانة مصالح البلاد . وردت الشركة منكرة على الحكومة حقها فى إلغاء عقد الامتياز ، ولكن إيران لم تعبأ بهذا الرد واستمرت فى خطتها ، وشجعها على ذلك اضطراب الموقف الدولى والأزمة الاقتصادية العالمية ، وهنا بدأت الحكومة البريطانية تتدخل بحكم ملكيتها لنصف أسهم الشركة ؛ فأرسلت مذكرة شديدة اللهجة تحذر فيها إيران من خرق الاتفاقات المعقودة بينها وبين الشركة ، ولم تلق إيران بالا إلى هذا الإنذار المجحف شأنه شأن الإنذارات البريطانية جميعاً ، بل ردت بمذكرة أكثر عنفاً وأشد لهجة .

وعرفت انجلترا أن إيران الحديثة غير إيران أواخر القرن التاسع عشر ؛ فأرسلت مذكرة تهدد فيها برفع الأمر إلى محكمة العدل الدولية إذا لم تسحب الحكومة الإيرانية قرارها بإلغاء امتياز الشركة خلال أسبوع من وصول

الذكرة ، ودفعت إيران بعدم اختصاص محكمة العدل ، وصرحت في ردها بأنها ستحمل القضية كلها إلى عصبة الأمم ولم تتردد في ذلك طويلاً ، فعينت العصبة المرحوم مسيو بنش حكماً بين الطرفين المتنازعين ، وقد استطاع السياسي التشيكوسلوفاكي أن يصل بالطرفين إلى اتفاق في مارس سنة ١٩٣٣ ، كان أهم بنوده أن حددت مساحة الامتياز بمائة ألف ميل مربع أي أنه هبط بها إلى ٢٠٪ من مساحتها الأصلية ، وترك للشركة اختيار الأراضي في حدود هذه المساحة ، كما قرر أن تكون حصة الحكومة على أساس الإنتاج ، فتأخذ أربعة شلنات على كل طن يستخرج من الزيت الخام ، وكانت حصتها من قبل نسبة من صافي الأرباح — وهو أمر كثيراً ما كانت الشركة تتلاعب فيه — على شرط ألا تقل حصة الحكومة عن ثلاثة أرباع مليون جنيه في السنة ، وكانت مدة هذا الامتياز الجديد ستين عاماً تنتهي في سنة ١٩٩٣ .

أدى هذا النظام إلى أن توسع الشركة في أعمالها حتى وصل إنتاجها في سنة ١٩٣٩ إلى ٧٨ مليون برميل ثم تضاعف في سنوات الحرب فأربى على ١٤٠ مليون برميل وهو زيت من النوع الممتاز ، إذ تزيد نسبة البنزين فيه على ٥٥٪ كما أن اقتصاديات تعدينه طيبة مشجعة : فموقع الحقول الجغرافي ملائم والأيدي العاملة الرخيصة متوفرة .

ويستخرج معظم البترول الإيراني من منطقة الخليج الفارسي وأهم حقوله في «مسجد سليمان» و «هفت كل» أقدم الحقول استغلالاً وفي «جاش ساران» و «آغاجاري» و «نفط شاه» ويكرر الزيت الخام المستخرج في معامل عبادان الواقعة على شط العرب وهي أكبر معامل التكرير في العالم إذ تبلغ طاقتها الانتاجية نحو ٢٠ مليون طن في السنة ، ومنها يحمل البترول المكرر إلى جهات العالم المختلفة ، تحمله الناقلات إلى دول الغرب أو إلى الدول الصديقة لها كأستراليا أو الهند .

وفي الفترة الأولى من الحرب العالمية الثانية زاد النفوذ الألماني في إيران وخشي الحلفاء أن تتطور الأمور بأسرع مما يتوقعون فسارعوا باحتلال إيران . احتل البريطانيون نصفها الجنوبي واحتل الروس النصف الشمالي ، ولكن الدولتين تعهدتا ومعهما الولايات المتحدة في مؤتمر طهران في ديسمبر سنة ١٩٤٣ بضمان استقلال إيران والجلاء عن أراضيها بمجرد زوال الضرورات الحربية التي دعت إلى الاحتلال .

وأظهرت الحرب أهمية إيران كمورد للبترول . فأخذت روسيا تتنكر لمبادئها الاشتراكية وبدأت تسلك مسلك الدول الاستعمارية ، فنزلت إلى الميدان تسعى للحصول على امتيازات خاصة بالبترول ، ورفضت إيران في أكتوبر سنة ١٩٤٤ بحجة أن الجيوش الأجنبية لا تزال تحتل البلاد ، ومن ثم فالرأي العام غير معد لقبول فكرة منح امتيازات بترولية جديدة . وسخطت الروسيا خصوصاً وهي تعرف أن انجلترا وأمريكا كانتا من وراء هذا الرفض ، وكان هذا مثار أزمة دولية أنذرت بقيام حرب عالمية ثالثة خصوصاً بعد قيام ثورة أذربيجان تعضدها الحكومة الروسية . واستمرت حالة القلق هذه لمدة سنة ونصف تقريباً ، ولم ينهها إلا اتفاق السيد قوام السلطنة مع موسكو في إبريل سنة ١٩٤٦ الذي بمقتضاه جلت الجيوش الروسية من إيران ، وحلت مشكلة آذربيجان مقابل منح امتياز لشركة روسية إيرانية تقوم بالتنقيب عن البترول واستغلاله في شمال إيران لمدة خمسين سنة تؤول بعدها آبار الشركة ومعداتها إلى الحكومة الإيرانية . ولسنا في مجال مناقشة تفاصيل هذا الامتياز الجديد ، إلا أنه على أي حال كان أحسن كثيراً من الامتياز الممنوح للشركة الإنجليزية وكان أكثر صيانة للمصالح الإيرانية .

وكان الوعي القومي قد تنبه ورأى الأحداث العالمية من حوله وكلها تدعوه إلى أن يعمل على استرداد ثروته السليبة ، فكانت حركة المناداة بتأميم موارد البترول ونجحت الحركة ، وكان لها صداها في الدول العظمى الثلاث بريطانيا وأمريكا والروسيا ؛ وموعدنا مقال آخر نتحدث فيه عن مستقبل التأميم وإلى أي مدى يمكن أن ينجح في إيران وعن موقف الدول التي يعنيها أمر البترول في إيران بخاصة وفي الشرق الأوسط عامة .

محمد محمود الصياد

مسـنـد أحمد

للدكتور أحمد أمين بك

اشتهر الإمام أحمد بن حنبل في مذهبه بمذهب ابن حنبل ، وهو عنوان يوحي بالتشدد والتزمت ، وربما كان هذا ظلماً من الناس ، وربما كان أوسع من غيره وأسهل ، كما اشتهر في تأليفه في الحديث بمسند أحمد ، وفي تعذيبه على يد المأمون والواثق بمحنة أحمد ، لقوله بعدم خلق القرآن كما يدّعي المعتزلة . وربما كان محقاً في ذلك ، لأنه ربما كان باباً يدخل منه المغرضون لعدم تقديس القرآن ، وإلا فليس يعقول أن أحمد على فضله وعقله يقول : إن ما بين جلدتي المصحف قديم ، بالمعنى الواضح الذي يفهمه الناس . وعلى كل حال موضوعنا اليوم هو أحمد المحدّث ؛ فقد جمع كتابه المسند في عدد كبير من الأجزاء ، طبع قبل اليوم في مصر في ستة أجزاء ، وقام الأستاذ الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر بطبعه طبعة جديدة أنيقة ، قد تقع في أكثر من ثلاثين جزءاً ، تليها عدة أجزاء للفهارس المتنوعة التي تسهل الانتفاع به .

ويمتاز مسند أحمد بجمعه أحاديث كل صحابي بجانب بعضها ، فالأحاديث التي رواها عمر ، والأحاديث التي رواها أبو بكر ، والأحاديث التي رواها أبو هريرة ، كل واحدة منها مجموعة مع بعضها . كما امتاز بالإكثار من الحديث كثرة تفوق ما جمعه البخاري ومسلم ، وإن لم تبلغ صحتها صحتهما . فقد نص الأستاذ الناشر على بعض أحاديث ضعيفة فيه .

ومهما قال المتقولون في عدم الاعتماد على الحديث لعثورهم على بعض منه مأخوذ من الفرس أو اليونان أو الرومان ، فإنها لا تخلو من أنها حكمة وخلاصة تجربة ، والحكمة كما في الحديث ضالة المؤمن يأخذها حيث وجدها . وأيّاً ما كان فالموضوع قليل بالنسبة للصحيح ، كالشعرة البيضاء في الجسم الأسود أو السوداء في الجسم الأبيض . وعليه الاعتماد في شرح أعمال الرسول وحركاته وسكناته وأحواله ، وفيه مقدار غير قليل في تفسير القرآن إما مباشرة وإما بالواسطة ، وفيه من معالم التاريخ ما لابد منه لتوضيح الوقائع ، وتوضيح الحياة الاجتماعية في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين .

ويقف الباحثون أو المنكرون موقفاً خاطئاً ؛ فهم يطالبون بالدليل على الصحة بينما هم في غيرها يطالبون بالدليل على الخطأ ، فكان ينبغي أن يكون منهجهم واحداً ، لا ينكرون إلا ما قام البرهان على خطئه سنداً أو متناً . ولم يأل العلماء القدماء جهداً — والحق يقال — في فحص الأحاديث ، واستنبطوا لذلك علماً دقيقاً كاملاً .

وقد وضع الأستاذ أحمد شاكر رقماً مسلسلاً لكل حديث توطئة لعمل فهرس أو فهارس للألفاظ والمعاني والموضوعات وغيرها ، والتعليق على كل حديث بالصحة أو الضعف . وتقريب المنال للباحثين والمحدثين . وهو عمل لا يستطاع القيام به إلا بعد ممارسة طويلة للحديث وكتبه ، وصبر دائب في بحث كل حديث ومركزه من القوة أو الضعف ، وربطه بكتب الأحاديث الأخرى . أطال الله بقاء الأستاذ حتى يتم الكتاب على هذا النحو الجميل . ولعل تسهيل الانتفاع به أكبر باعث لهؤلاء المتقولين أن يعيدوا نظرهم في الحديث وقيمته ، ومقدار ما يستفاد منه من علم جم ، وأدب غزير ومعارف متنوعة .

أحمد أمين

من قصص جحا

للأستاذ محمد فريد أبو حديد بك

قيل – والعهدة على الراوي – إن جحا لم يكن على وفاق مع قاضي المدينة، ولكي نعرف مقدار الخطر الذي كان يتهدد جحا المسكين يجمل بنا أن نستبعد من أذهاننا كل ما هو معروف لنا في هذه الأيام من القوانين. واحترامها، ومن القضاة وتمسكهم بتطبيق تلك القوانين فمن الواجب علينا أن نحمد الله حمداً كثيراً، وأن نشكره ألف شكر على أننا نعيش في ظل قضاء يحكم على مقتضى قوانين معلومة، وأننا إذا أردنا أن نتقاضى كان لنا أن نقيم من رجال القانون محامين يدافعون عنا أو يطالبون بحقوقنا بالنيابة عنا، فندعهم أمام القضاة وجهاً لوجه يتناقشون ويتحاورون حتى يظهر الحق أخيراً مثل نور الفجر أبلج واضحاً...

وعلينا أن نستشعر الرحمة والعطف على جحا المسكين الذي كان يعيش في عصر غير عصرنا هذا عندما كان قاضي المدينة يسيطر بإرادته المطلقة ويحكم بما يراه هو لا ما يراه القانون. وأقل تأمل في حال جحا المسكين يدلنا على أن حياته في المدينة لم تكن آمنة ولا هادئة بحال من الأحوال. ولسنا ندري علة ذلك الخلاف ولا نجد في سجلات المدينة ما يهدينا إلى السر الذي حمل رجلاً مثل جحا على أن يستوجب غضب القاضي عليه، فمن المعلوم للجميع أن جحا كان رجلاً لين الجانب سهل العريكة لا يحرص على مادة هذه الحياة الدنيا، ولم تكن له في المدينة مصالح مادية تغري به أو توغر الصدور حنقاً عليه؛ كان لا يملك من الدنيا إلا داره المقفرة التي كانت تشبه الصحراء الفسيحة، وكان يحرص عليها لأن اتساع مساحتها يحفظ عليه ماء وجهه، ويجعله يرضى عن نفسه بعض الرضا، لأن سعة الدار كانت تسمح له أن يعد نفسه من الأعيان. وكان لا يملك بعد ذلك إلا ثوره وحماره، فأما الثور فكان يدور بالساقية فيملأ نعيرها حتى تبلغ آذان الجيران فيحسبون أنها تخرج ماء زلالاً يروي الأرض، وينبت البقل، ويخرج الزهر، مع أنها لم تكن تخرج من الماء شيئاً.

وأما حماره فكان له بمثابة الصديق يمثل به في الصبر على المكاره والولاء التام والإخلاص لمن لا يستحق الإخلاص.

هذا كل ما لجحا في المدينة، وإنه ليبدو عجيباً أن يكون مثل هذا الرجل موضعاً لغضب أو كراهة، ولا سيما كراهة قاضي المدينة، وهو من هو في مجده وثرائه وسطوته.

ومهما يكن من أمر فإن المعروف أن جحا لم يكن على وفاق مع ذلك القاضي المخيف ولم يستطع أن يعرف السبب الذي أثاره عليه.

وقد حاول جحا مراراً أن يسترضيه، وأن يقيم له الحجة البالغة على أنه لا يكن له بغضاً ولا حقداً، وأنه لا يعرف سبباً يدعو لجفائه إذ أنه لا ينافسه في شيء مما يحرص القاضي عليه. وحلف له مرة بالله العظيم أنه لا يتطلع إلى وظيفة القضاء التي يتمتع بخيراتها، ولكن القاضي بقي سادراً في جموده لا يحرك ساكناً ويضمر له في قلبه الحفيظة. ولو كان الأمر لم يتعد الكراهة والحفيظة والجمود لما كان فيه ما يدعو إلى خوف، فإن جحا كان معروفاً عند الجميع بأنه لا يبالي المحبة ولا الكراهة. كان معروفاً عنه أنه يقول ما يرد على خاطره، ويرى أن ذلك من حقه أو هو من واجبه، وكان في ذلك لا يصدر عن عداوة ولا كراهية لأحد، بل كان يقول ما يعتقد أنه الحق لأنه لو لم يجهر به لبقي الحق في جوفه يغص ويقطع حتى يكاد يزهق نفسه. فكان عذره واضحاً في أنه كان يحب أن يجهر بما يراه الحق دائماً، ولكنه كان مع ذلك لا يغضب من أن يقول الناس ما عندهم من

رأى وإن كان مخالفاً لرأيه . فإذا بدا له أن الناس لا يقولون الحق حاول أن يصرف الأمر كله بكلمة ضاحكة تسرى عنه بغير أن تؤذى أحداً ؛ فمثل هذا الرجل جدير بأن يكون من أبعد الناس عن أن يحتفل بمحبة أحد أو كراهته .

ومحبة الناس أو كراهتهم لا تكون ذات قيمة إلا لأنها تجلب خيراً أو تمنع الخير ، ولم يكن جحا ممن يحرصون على الاستزادة من الخيرات التى تقيد الناس بأغلالها وتذل الأعناق بأحمالها .

فالظاهر والله أعلم أن القاضى لم يكن ممن يرضون من الناس بمثل هذا الموقف السلبى ؛ فكان يعد جحا ثائراً عليه ، خارجاً على إرادته متحدياً لسلطانه .

وكان من سوء حظ جحا أن المدينة كانت فى ذلك العصر داخلة فى دولة تيمور لنك وهو طاغية من طواغيت الدنيا ، من هؤلاء الذين لم يذكر التاريخ أشد منهم قسوة ، ولا أجرأ منهم على الظلم .

وقد رفع إلى تيمور أن بالمدينة رجلاً اسمه جحا يكثر من الكلام وينطق بأقوال فارغة يزعم أنها الحق ، ويخرج إلى الأسواق فيسمع السوقة ألفاظ الحرية والعدل والدين والرحمة ، ويسمع الضعفاء أنهم أقوياء ، ويأمر الخائفين أن يجهروا بما عندهم من إنكار لطغيان الطغاة . وكان القاضى عند تيمور فى ليلة من الليالى ، فسأله تيمور عن جحا .

وتظاهر القاضى بأنه لا يعرفه ، فأمره تيمور أن يبحث عنه وأن يؤاخذه وأن يؤدبه ، وإذا احتاج تأديبه إلى التعزير فليشدد عقوبته .

ولست أريد أن أطيل فى سرد تفاصيل القصة المحزنة التى أعقبت هذا . فجملة القول أن جحا أصبح فى المدينة شقياً معذباً مضطهداً مطارداً ، حتى رأى ألا مخرج له من شقائه إلا بأن يفر من المدينة .

وفيما هو خارج من المدينة على حماره المسكين ، لقيه القاضى خارجاً من الدار ، وكانت داره الأنيقة على مشارف المدينة ، يمر بها كل داخل إليها وكل خارج منها . ولسنا ندرى هل كان ذلك اللقاء اتفاقاً ومصادفة ، أم كان متعمداً مقصوداً . ومهما يكن من الأمر ، فقد بادره القاضى قائلاً وهو يبتسم ابتسامة صفراء :

— إلى أين يا جحا ؟.

فقال : أنت هذا تراني على الطريق .

فقال القاضى : ولم هذا الهروب ؟.

فأجاب فى بساطة : إن كان خروجى هرباً ؛ فذلك هروب من الظلم ، فقد ظلمتنى .

فضحك القاضى ضحكة طويلة وقال : ألا تترك دعابتك ؟.

فقال جحا : أيها المسكين !

فقال القاضى ماضياً فى ضحكه : أنا مسكين ؟.

فقال جحا : ومن أكثر مسكنة من الظالم أيها الرجل ؟.

فوالله لو فهمت قولى ، لاستبدلت بالضحك البكاء . أرأيت لو وضع الطبيب سماً للمريض الذى ائتمنه على حياته بدل أن يضع له الدواء طمعاً فى رشوة أخذها ؟ أرأيت لو نزعت الأم ثديها من فم طفلها وقذفت به فى موقد النار ، ثم تقوم فاتحة ذراعيها لشريكها فى الجريمة ؟ أرأيت لو أحرق لص بيدر القمح بعد أن يسرق منه كيلتين ؟ أرأيت لو أغرق العبد الأجير سفينة بمن عليها ليجمع ما يطفو على وجه الماء بعد غرقها من خسيس المتاع ؟ إن هؤلاء جميعاً يظلمون ظلماً شنيعاً لا يختلف عن ظلمك أنت . ولست أجد لكم جميعاً سبة أشنع من أن أقول لكم : أيها الظلمة !.

ومضى جحا فى سبيله لا ينظر إلى ورائه ، فلم يسمع نداء القاضى بصوته المرتجف المتخاذل ، ولم ير وجهه الأصفر الذى هرب منه الدم . ورفع القاضى يده إلى عينه يمسح دمعة غيظ جالت فيها .

وكان جحا وهو يحض حماره على الإسراع فى السير يتمتم قائلاً :

— لست أنا الذى أهرب منك أيتها المدينة البائسة . إنك أنت وقاضيك وطاغيتك الذين تهربون منى .

محمد فريد أبو حديد

نهضتنا الثقافية

وعلاقتها بنهضتنا العامة

للأستاذ محمد مفيد الشوباشي

يرى بعض المعنيين بنهضتنا الفكرية أن آدابنا قطعت في مضمار التقدم شوطاً لم يقطعه سواها من سائر فروع المعرفة، وأنها لذلك لم تعد في حاجة إلى رعاية ومؤازرة ... هؤلاء يحلمون بأحلام ذهبية بعيدة عن الواقع، بل مناقضة له. فالأدب عندنا مازال في ذيل نهضتنا الحديثة، وليس في ذلك خروج عن المألوف، لأن رقى الفكر يترتب على رقى الحياة المادية وفق نظام التفاعل الذي سيأتي شرحه بعد. والأدب وليد السمو الفكري، وتجويده يتطلب مواهب لا تنضج النضج المنشود إلا بعد خبرة أجيال وأجيال. يؤثر الأدب والفكر كل منهما في الآخر خلالها تأثيراً متبادلاً متوالياً. أما تحصيل ألوان العلوم والمعارف الأخرى فلا يشق على طلابها مثلما يشق الأدب البعيد الأغوار، المتنوع الألوان، المترامي الأطراف.

ويرى آخرون أن الأمور تجرى عندنا في مجراها الطبيعي، فنهضة مصر الأدبية ملائمة لها، جديرة بها. والذي يطلب من الأدب أن يسمو إلى مكانة لم تسم حالة البلاد إلى مثلها يطلب شططا ... لأنه يطلب أمراً غير طبيعي. ونحن نحسب أن أصحاب هذا الرأي أدركوا الصواب من ناحية، وأخطأوه من ناحية أخرى. فمما لا شك فيه أن أدبنا وليد ظروفنا وملابساتنا، وأنه لم يرق إلا بالقدر الذي سمحت به هذه الظروف والملابسات. أما القول بأن الذي يطلب تغيير هذا الوضع يطلب شططا، فيرد عليه أصحاب المذهب الثالث ...

هؤلاء يرون أن على الناس أن يحاولوا السيطرة على الظروف والملابسات المحيطة بهم، ويعملوا على تحويرها تحويراً يلائمهم ويساعدهم على سرعة التقدم والارتقاء. ونحسب أن الإشارة إلى بعض المذاهب الفلسفية المتصلة بهذا البحث قبل الاسترسال فيه قد تنير بعض جوانبه الغامضة.

رأى ديكارت ومن تلاه من طلائع فلاسفة العصر الحديث أن الناس خاضعون كل الخضوع لأحكام الحياة المحيطة بهم. فالوجود قائم على أصول ثابتة، سائر وفق نظم ونواميس لا تتبدل. والإنسان عاجز عن أن يغير قتيلاً من تلك الأصول والنظم والنواميس، ولذلك نراه يتكيف وفق أحكامها، ويبذل جهده ليلائم بين حوائجه ومقتضياتها. وقد عرف مذهب هؤلاء الفلاسفة بالمذهب الآلي، أو «الميكانيكي» لأنه يقول بأن الوجود يجرى كما تجرى الآلة على وتيرة واحدة.

ثم جاء بعد ذلك الفلاسفة الفرديون، أو المثاليون كما يسميهم الشراح، وقالوا بأن الوجود لا يسير إلا بإرادة النابغين من الرجال، فهؤلاء هم الذين يغيرون التاريخ وفق رغائبهم، وهم الذين يقودون الأمم ويخضعونها وفق أهوائهم؛ وليس التاريخ العام إلا مجموعة سير أولئك العظماء، وليست الحضارات إلا من خلق عبقرياتهم. وقد تمكن الناس بفضلهم من التحكم في الطبيعة، والسيطرة على عناصرها الجامحة، وتسخيرها في سبيل منافعهم ومصالحهم ...

وقد آذن هذان المذهبان الفلسفيان بظهور المذهب الصحيح الحديث الذي استخلص من سابقيه ما تضمنا من صواب، ونقاه وصفاه مما علق به من زيف؛ وخلاصة ما قال به هذا المذهب أن الناس من ناحية وما يحيط بهم من مقومات حياتهم المادية والاجتماعية من ناحية أخرى، يتفاعل كل منهما مع الآخر تفاعلاً متبادلاً؛ فالناس يشيدون منازلهم، ويصنعون ما يحتاجون إليه من متاع، وينشئون مؤسساتهم الأدبية والفنية والعلمية، فإذا كل هذا ينشيء بدوره حالة جديدة لأولئك الناس ويخلق لهم عقلية جديدة، ويبث فيهم آراء مستحدثة، ويكشف عن آفاق فكرية غير مطروقة، وإذا هم ينتقلون إلى طور جديد، ويصبحون

أقدر على تحسين ما ينتجون وينشئون ، ثم يتأثرون بما أخذوا ينتجون وينشئون ، وهكذا تدور الحياة ويحدث التقدم .

ونحسب أن هذا المذهب يزداد وضوحاً إذا ما توسعنا في تطبيقه العملي ؛ ولعل المقارنة بين قطان المدن وقطان الريف ، أو بين الشعوب المتحضرة قبل اختراع الآلة الميكانيكية وبعد اختراعها يسرت علينا مهمة الشرح أي تيسير .

يختلف سكان المدن عن سكان الريف الذين لا عهد لهم بالمدن في آرائهم ومعتقداتهم وأذواقهم ، ولا نحسب أحداً يرى أن هذا الاختلاف محل خلاف ؛ ولم تتكون عقلية سكان المدن هذا التكون الحالي إلا بتأثير المشاهد المادية والظواهر الاجتماعية المحيطة بأصحابها ؛ ومن أهم تلك المشاهد والظواهر الدور وما اشتملت عليه من رياش ، والمحافل والمسارح والمعارض والمنتديات والمتنزهات والطرق المرصوفة ومركبات النقل ووسائل الراحة والمتعة ، بل والملابس والمآكل والمشارب ، ولم يتم تشييد المدن الكبيرة التي نراها اليوم ، لأن جماعة من أهل الفكر خطر لهم قبل عصر ازدهار المدن أن يشيدوها فوضعوا تصميمها على النحو الذي نراه الآن ، ولكن مقومات المدن الحديثة لم تتوافر وتكتمل إلا بعد تطور طويل الأمد وقع فيه التأثير المتبادل بينها وبين قطانها على النحو الذي ذكرناه .

أما الذي كان له أخطر الأثر في تشييد المدن الحديثة ، وتسديد الخطى في الاتجاهات الفكرية العصرية فهو اختراع الآلة الميكانيكية . فهذه الآلة مكنت من إنتاج البضائع بالجملة ، وأسفر ذلك عن ظهور الطبقة المتوسطة التي استطاعت أن تنزع النفوذ والسلطان من الأشراف بعد أن تمت لها السيطرة على الإنتاج . ولم يلبث إنتاجها المطرد النماء ، وطرق توزيعه ، وما ترتب على ذلك من تغيير في الأوضاع الاقتصادية ، أن مهد السبيل لظهور معتقدات ومثل فكرية جديدة ملائمة لهذه الطبقة ، وأخذت المعتقدات والمثل التي كانت سائدة في عهد الأشراف تتقلص وتتبدد . وعلى ذلك تكون الآلة الميكانيكية التي أبدعها الناس هي التي أبدعت لهم اتجاهاتهم الفكرية الحديثة ، ووجهات نظرهم الجديدة .

ولكن هل حدث الانقلاب الآلي ، وازدهار الإنتاج ونماء المدن على نحو ما نرى دفعة واحدة بغير تمهيد وبغير تطور ؟ هل طلع على الكون أيام عصور الإقطاع عباقرة تكشف لهم الغيب ، وهبط عليهم الوحي ، فرأوا كما سبق القول أن حضارة المدن ستدفع بالإنسانية قدماً في سبيل الرقي ، فعملوا على تشييد هذه المدن الحديثة وأتموا ذلك بين يوم وليلة !.. أو أنهم عملوا على تشييد المصانع ، وقلب النظام الاقتصادي الإقطاعي بين عشية وضحاها ؟!.. إن شيئاً من هذا لم يحدث ، ولكن الذي حدث هو تطور سار الهوينا ابتداء من العصر الحجري حين اهتدى الإنسان إلى صنع ما احتاج إليه آنذاك من أدوات بدائية ، ثم تأثر بما صنع ونما فكره قليلاً ، واكتسب شيئاً من الخبرة ، وازداد قوة ملاحظة وفطنة ، وصار أقدر على تحسين مصنوعاته ، وإنا قيل إن المران سبيل التجويد والإتقان ، فسبب ذلك أن الإنسان يتأثر بما ينتج ويزداد به خبرة وفطنة ، فيجيء إنتاجه الجديد خيراً من سابقه . ثم يتدرج في صناعته مستفيداً من تجويده متدرجاً في سبيل الإتقان تدرجاً لا غنى عنه ، لأنه لا يستطيع أن يصل إلى الإجادة طفرة واحدة . وهكذا ظل الناس منذ العصر الحجري يخترعون من أنواع الإنتاج ما هم في حاجة إليه ، ويتأثرون به ثم يؤثرون فيه ، ويستفيدون منه ويزيدونه حتى وصلت حضارتهم إلى ما وصلت إليه اليوم .

هذه هي وسيلة التطور العام الذي يسمو بإنتاج الناس وعقليتهم على التوالي . وفي ركابه تتطور علوم الناس وآدابهم وفنونهم ومثلهم ومعتقداتهم وقوانينهم وقواعد أخلاقهم ، وأوجه نشاطهم الفكري كافة . وكل فرع من فروع هذه المعارف لا يتفاعل مع ما يحيط به من ظروف وملابسات فحسب ، ولكنه يتفاعل كذلك مع باقي تلك الفروع ، ثم يتأثر معها باتجاه التطور العام . وإذا كان الكاتب يتأثر بقرائه ويؤثر فيهم ، فإنه وقراءه يتأثرون بمجتمعهم ويؤثرون فيه ، وهؤلاء جميعاً يتأثرون بالتطور العام ويؤثرون فيه ، كبر هذا التأثير أو صغر ، وطال به الزمن أو قصر . فكل فرع يدور في فلكه ، والأفرع كافة تدور في محيط الفلك العام ، متأثرة به ومؤثرة فيه .

وإذا حاولنا أن ندرس نهضتنا الحديثة على ضوء ما قدمنا ، فلا بد من أن نعود إلى الوراء ، ونفحص حالتنا قبل انبثاق بشائر تلك النهضة . لقد عاشت مصر على الزراعة منقطعة الصلة بأوربا ونهضتها الحديثة حتى فتحها الفرنسيون . وقد

تحدثنا عن الصناعة وأثرها فى تقدم الأمم . أما الزراعة فليس لها تأثير من هذا القبيل ، لأنها تجرى عاماً بعد عام على وتيرة واحدة ، فلا تفيد المشتغلين بها خبرة ترفع من مستواهم الفكرى . والزرع ينمو ببطء فيصيب القائمين عليه بالجمود . ثم إن الزراعة لا تتطلب إنشاء المدن الكبيرة التى يتكاثف فيها عدد السكان فيهيء تكاتفهم سبيل إنشاء المؤسسات التى تحدثنا عنها ، ويحدث التفاعل الذى ذكرناه بين أولئك السكان وما يحيط بهم من مقومات حياتهم المادية والمعنوية .. وعلى هذا ظلت مصر تعانى الركود الذى ثبته وأيده وقوعها فى أيدى الغزاة الشرقيين الذين اتخذوا منها مخزناً يمدهم بالغلة والمال ، وظلت حالها هكذا حتى دخلها الفرنسيون ، فأيقظت مدافع نابليون شعب مصر من سباته ، وحملته على التطلع إلى الغرب وحضارته التى أكسبته هذه القوة .. وجاء محمد على باشا فوجد الجو مهيأ للنهوض بالبلاد اقتصادياً وفكرياً ، فدرج كما درج من ولوا حكم البلاد من بعده على اقتباس علوم أوربا وأساليب العيش فيها كما هو معلوم ، وأخذت النهضة تدب فى أوصال البلاد .

أنشئت المصانع لأغراض مدنية وعسكرية ، وشيدت الدور ، ورصفت الشوارع ، وأقيمت المدارس العالية على غرار ما هو قائم فى أوربا ، وأخذ الناس يغيرون أساليب عيشهم ، وقد تناول التغيير حتى الزى العسكرى والمدنى ، ثم طفق يسرع فى خطاه ابتداء من عهد إسماعيل باشا ، ولكن ذلك التغيير المادى والمعنوى لم يؤثر فى العقلية المصرية وينهض بها نهضة أدبية إلا قبيل الثورة العرابية ، وكانت الثمرة الأولى لليقظة الفكرية إدراك الشعب لحقوقه وتمسكه بها ، واستفاضة شعوره بالكرامة الشخصية والعزة القومية ؛ وحين أراد حملة الأقلام من شعراء وكتاب أن يعبروا عن مشاعرهم الجديدة لم يجدوا مجالاً للمران على التعبير إلا فى محيط الأدب العربى الإسلامى ، وسرعان ما اتصلت نهضتنا الأدبية بنهضات العرب الأدبية فى العصور السالفة ، وسار التطور فى طريق طبيعى ممهد ، لأن نهضة مصر المادية لم تكن قد أثرت حينذاك فى العقلية المصرية تأثيراً كيفياً عميقاً يقطع صلتها التاريخية بالعقلية العربية .

ولكن دخول الانجليز مصر ، وما أعقب ذلك من توسع فى الأخذ بمقومات المدنية الغربية والاطلاع على العلوم والفنون والآداب الأجنبية ، ثم وقوع الحربين العالميتين ، وانتعاش اقتصاد البلاد بسببهما ، دفع حركة التطور دفعة قوية إلى الأمام ، وزاد من تطلع المصريين إلى الغرب ، أملاً فى الخلاص من ربقة القديم واللحاق بالركب الحضارى العام .

والذى يستخلص مما تقدم أننا بدأنا نأخذ منذ مستهل القرن الماضى بأسباب الحضارة الأوربية ، واستعنا أول الأمر بالأجانب لتشييد صرح نهضتنا ، ثم طفقنا نتعلم علومهم ونستفيد من خبرتهم حتى استطعنا أن نقطع بعض شوطهم ؛ ولكن مظاهر نهضتنا أسبق فى التقدم على حقيقة مقدرتنا التى لم تنضج ، لأن نضجها يتطلب طول عهد التفاعل الذى كررنا الحديث عنه ، هذا إلى أن صناعتنا لم تبلغ من الاتساع والشمول بعض القدر الضرورى لازدهار النهضات الكبرى .

ولعل القارئ يذكر ما قلنا عن الفرق بين تأثير الصناعة وتأثير الزراعة فى تقدم الأمم . أما نهضتنا الحديثة فطفرة لم تسر فى طريق التدرج والتطور الطبيعى . وليس معنى هذا أننا أخطأنا فى النهج الذى نهجناه ، وأنه كان أولى بنا أن نتمهل فى تقدمنا ونتريث ، ولكن مقصدنا مما نقول أن نبين أسباب تقدم نضجنا إلى الآن .

وما دامت عقليتنا لم تستطع أن تجارى نهضتنا المادية فى سرعة رقيها ، فمن الطبيعى أن تظل نهضتنا الثقافية فى مستوى عقليتنا . ومن شواهد تخلف النشاط العلمى والفنى والأدبى عندنا ، أننا إذا ما استثنينا أفذاذنا الذين لا يقاس عليهم ، نجد أن تقدمنا المهنى سابق على تقدمنا الفكرى والفنى . فى محيط الطب نجد الإقبال على التطبيب دون البحوث العلمية . وفى القانون نجد الإقبال على المحاماة والقضاء دون البحوث والشروح . والإقبال فى الهندسة على فن البناء دون التوسع والتمكن من فنون التصميم والزخرفة ... وهكذا نجد حال سائر فروع المعرفة ... ولعلنا نرى أصل ذلك فى إقبال تلاميذ المدارس على تحصيل دروس البرامج دون الكتب الثقافية المقررة ... إننا نعمل ولكننا لم نحصل بعد فوائد تجاربنا ، لأن ذلك يحتاج إلى مندوحة من الوقت حتى يسفر التفاعل عن الانصهار المرجو .

وليس معنى هذا أن ننفض يدنا مما يقع لنا . وتلق بحبل

(البقية على الصفحة التالية)

كيف تحسن الكتابة

الأستاذ محمود محمود

الغرض من الكتابة أن تعبر عن فكرة تحس ضرورة التعبير عنها . أو بعبارة أخرى : هو أن تنقل معنى من ذهنك إلى ذهن القارئ . وهو عمل كان ينبغي أن يكون سهل الأداء ، غير أنه — في واقع الأمر — شاق عسير عند أكثر الناس . فهم يحسبون أن الكتابة حرفة فنية رفيعة ، لا يمارسها إلا أولئك الذين أدركوا سرها وحذقوا وسائلها . وهم يتوهمون ذلك في تأليف الكتب أو تدبيج المقالات والبحوث على الأقل . وقد لا يتوهمونه عند تحرير الخطابات . فهى تختلف عن الكتب والمقالات في طبيعتها . لأن الخطاب إن هو إلا حديث على الورق مسطور ، ولذا فهو لا يدخل في باب الكتابة الفنية التي تكتنفها الأسرار والغموض .

ويقول الفيلسوف الإنجليزي المعاصر جود إنه كان أستاذاً في إحدى الجامعات ، وكان يكلف طلبته أن يكتبوا له مقالاً كل أسبوعين . وكان يجد مشقة كبرى في الحصول على هذه المقالات ؛ إذ كان الطلبة يتحايلون بمختلف الطرق للتخلص من تقديمها . ففكر جود في وسيلة يحتال بها على طلبته لكي يكتبوا له . طلب إليهم أن يحرروا له خطاباً لا مقالاً ، وطلب إليهم أن يذكروا في الخطاب شيئاً عن رأيهم في المحاضرات التي تلقى عليهم وفي الطلبة زملائهم ، وشيئاً عن رأيهم في موضوع المقال الذي كلفهم الكتابة فيه آخر مرة — وهنا مكر بهم أستاذهم جود مكراً شديداً ، لأنه ساقهم إلى الكتابة في الموضوع بطريق غير مباشرة . وكانت لهذه التجربة نتيجة تدعو إلى العجب حقاً . فقد أكب كل منهم على رسالة يحررها ، وجاء تعبيرهم قوياً جميلاً . وظفر منهم أستاذهم في يسر وسهولة بما ألح عليهم في طلبه في مقال فلم يظفر به .

ويقول جود : إن هذه التجربة أقنعته بما كان يشك فيه من قبل ، وهو أن كل حديث عن الأسلوب والصياغة والقدرة على التعبير كتابة ليس إلا دجلاً يقصد به الأدباء أن يوهموا القراء أن الكتابة فن رفيع لا يستطيعه إلا رجل عبقري موهوب ، ذلك لأنهم يكسبون عيشهم بهذا التهويش والادعاء . ولا يشك جود في أن الرجل العادي لو أمسك بالقلم وعبر تعبيراً مباشراً بسيطاً لأجاد الكتابة في أسلوب جميل .

غير أن الرجل العادي لا يفعل ذلك . فإن أراد أن يكتب للصحف ، وظن أنه لابد له من التعبير بما يسميه الأسلوب الأدبي ، تصور أنه لا يبلغ بغيته إلا إن استخدم لفظتين أو ثلاثاً في موضع تكفي للتعبير فيه لفظة واحدة ، فتراه يقول مثلاً : « أرض الكنانة » بدلاً من « مصر » و « عاصمة المعز » بدلاً من « القاهرة » . ومنشأ هذه الفكرة الخاطئة ، هو الاعتقاد بأن الغرض من الكتابة يختلف عن الغرض من الحديث . وأن مهمة الكلمة في الحديث هي مجرد إيصال المعنى من ذهن المتكلم إلى ذهن السامع . أما مهمة الكلمة المكتوبة فهي إحداث ما يسمونه التأثير الأدبي . وترجع هذه العقيدة الخاطئة إلى سببين :

تقدمنا على كاهل الزمن . بل على ذوي السلطان منا أن يبذلوا ما وسعهم من جهد لتنشيط حركة التطور . عليهم أن يؤيدوا الصناعة ويعمموها حتى تتحول مصر إلى بلد صناعي وأن يشجعوا أوجه نشاطنا العلمي والأدبي والفني ، ويضعوا لذلك المشاريع ويباشروا تنفيذها حتى يتم التفاعل بين التقدمين الصناعي والفكري ، فتزداد سرعة تقدم كل منهما . وأن يغرسوا في النشء حب الاطلاع ، ويفتحوا لهم أبواب المتاحف والمعارض والمسارح والمكتبات العامة ، حتى تنتعش الكتابة ، ويقع التفاعل بين الكتاب وقرائهم ... كل ذلك يجب أن يتم ، بل يجب أن نبدأ فنبحث كيف يتم على وجه علمي منظم .

محمد مفيد الشوباشي

أما أولهما فهو السم الذى ينفثه من يتصدون للكتابة فى الصحف السيارة ، فهم يحبون إثارة الخواطر ، سواء كان من الحوادث ما يثير أو ما لا يثير . فقد تكون هناك حرب عالمية كبرى ، وقد يكون العالم فى سلام . غير أن الصحافى لا يقف هذا الموقف ، ولا يعطى لنفسه الخيار . فهو يرى أن من واجبه أن يصدر صحيفة خلابة مثيرة ، سواء كان هناك ما يخلب اللب أو لم يكن . فإن كانت الحوادث خلواً مما يسلى أو يثير ، تلاعب باللفظ يؤدى به ما أبت الحوادث أن تؤديه .

ومن ثم كان من أهم سمات الأسلوب الصحافى الإطناب والمبالغة . ومن وسائل تحقيق هذه المبالغة المنشودة استخدام ألفاظ أخاذة لا يتوقعها القارئ . فتراه ينعت « اللص » — مثلاً — بأنه « زعيم عصابة كبرى » . فالصحافى لا يؤدى مهمته ولا يخدم مهنته إلا إذا استخدم الألفاظ الرنانة والتعبيرات ذات الطنين . وهى عبارات فضفاضة لا تتلاءم وأهمية الحادث . ولا تعبر بإخلاص عما يجيش فى صدر الكاتب نفسه .

فلو أن كاتباً صحافياً أراد — كما ذكر جراروردى فى كتابه « التعبير » — أن يقول « جلس القط على الحصير » وليس لديه أكثر من ذلك ، غير أن بالصحيفة نصف عمود لا بد من ملئه ، فلا مناص للكاتب من أن يحمّل هذه العبارة اليسيرة عبئاً ثقيلاً من الفصاحة وأن يشحنها بالعاطفة الكاذبة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً . فيقول مثلاً : « استلقى الحيوان بجسمه المتقطقط الرشيق ، وماء بذلك الصوت المألوف الذى عرف به جنسه منذ الأزل ، وعبر بموائه عن الطمأنينة ورضا النفس . استلقى بس (اسم القط) على بساط سندسى فيه أبهة الشرق وعجائب ألف ليلة وليلة » . وإذا لم يكن الكاتب ماهراً فشل فى محاولته ، وجاء أسلوبه مثيراً للسخرية لا للعواطف .

ألا إن هذا إسفاف فى التعبير ، وجريمة فى حق الأدب وأساليبه التى ينبغى أن يكون جمالها فى بساطتها . وما دمنا لا نهدف إلى التأثير الصحافى ؛ فيجب علينا أن نعاهد أنفسنا على أن نعبر عما نريد التعبير عنه وحسب ، لا نزيد ولا ننقص ، ولا نستخدم من اللفظ إلا ما يؤدى إلى الغرض ، وأن نقتصد فى الكلمات ما استطعنا .

وهناك سبب آخر غير الصحافة ، يحدو الكتاب إلى الاعتقاد بأن أسلوب الكتابة يختلف عن أسلوب الكلام ، وأن الكتابة كما ينبغى لها أن تكون — حديثاً مسطوراً على الورق . ذلك أن كثيراً من المؤلفين يحبون أن يبالغوا فى أهمية صناعتهم فيزعمون أن الكتابة فن — كفن الموسيقى أو فن التصوير . وما دامت الكتابة فناً فلا بد أن تكون لها أصول ، ولا بد أن تُشتق لها ألفاظ خاصة ، ولا بد أن يكون لعبارة الكاتب جرس ورنين — وهذا هو ما يسمونه « الأسلوب » . ولا تكون للكتابة أية قيمة إذا لم تتميز بهذا « الأسلوب » .

والاعتقاد فى أن الأسلوب له قيمة مستقلة عن المعنى الذى يحمله كان سائداً حتى عهد قريب جداً ، فكان الكاتب يهتم بطريقة الأداء أكثر من اهتمامه بما يؤدى ، ولم تدرك كثرة الأدباء خطأ هذا الزعم إلا حديثاً جداً .

ويقول صموئيل بتلر الكاتب الإنجليزى فى هذا الصدد : « لم أعرف كاتباً حاول التأنق فى أسلوبه ، وأخرج لنا بعد ذلك ما يستحق القراءة ... إنى حينما أكتب لا أفكر إن كان لى أسلوب أو ليس لى ، ولو فكرت لكان ذلك على حسابى وحساب القراء ... مع أنى أحاول أن يكون خط يدى جميلاً مقروءاً » .

يجب أن يكون أسلوب الرجل كردائه لا يتألق ولا يخطف البصر ، وإنما يجب أن يكون الشعور صادقاً والفكرة واضحة ، ويكفى الكاتب بعد ذلك قليل من قواعد النحو والصرف . فالفكرة الجميلة هى الأسلوب الجميل .

إن شو وكنراد وهدسن من الكتاب الإنجليز المحدثين لم يتفوقوا لبراعتهم فى الأسلوب ، وإنما بشّر شو بالاشتراكية ، وقص لنا كنراد القصص عن حياة الملاحين ، وأطلعنا هدسن على عجائب الطبيعة ، وجاءهم جمال الأسلوب من تلقاء نفسه .

ويقول شو : « إن الأسلوب الأصيل حقاً لا يطلب لذاته . قوة الفكر هى قوة الأسلوب . ومن لا رأى له لا أسلوب له ، ولن يكون له . ولا يمنع ذلك من أن يكون الرأى خاطئاً » .

ولست أنكر أن للألفاظ جمالاً ونغماً ، وقد يتحد الرجلان في قوة الشعور ووضوح الفكرة إزاء موضوع واحد ، ومع ذلك نرى أحدهما يعبر عن نفسه بإخلاص ويكون لتعبيره تأثير وقدرة على الإقناع ، بينما نجد الآخر فاتراً ضعيف التأثير . أو ليس من واجبنا أن نلتمس تلك الصفة التي تضفي على الألفاظ جمالاً ، وأن نتحاشى تلك التي تجعل الكلام بارداً لا روح فيه ؟ :

لا شك في أن من الكلمات ما يثير الشعور ، ومنها ما لا يثيره ، ولا مراء في أن لبعض الألفاظ سحراً وموسيقى وجمالاً لا يتوفر في بعضها الآخر ، ولكني لا أنصح الكاتب بالبحث عن مثل هذه الألفاظ عامداً متكلفاً ، ولو أنه فعل لفرت منه وشق عليه أن يهتدي إلى مظانها . إن موسيقى اللفظ وجماله صفتان لهما قدرهما في الكتابة ، ولكنهما يأتيان من تلقائهما ، ولو أنك عبرت عما في نفسك بوضوح وبساطة وتفاديت التكلف والتقليد ، لانطبع ما تكتب بطابع شخصيتك . فإن كانت الفكرة جميلة والرأي مبتكراً ما خفي ذلك على القراء .

وكما أن المرء ليس بوسعه أن يجعل شخصيته محببة إلى النفوس إذا لم تكن بطبعها كذلك ، فكذلك يستحيل عليك أن تجعل أسلوبك شائقاً بصقله ، أو جميلاً بزخرفه . إن الرجل الذي يفكر في ذاته وفي الأثر الذي يتركه شخصه في الآخرين لا ينجح إلا في إظهار التكلف والشعور بالقلق ، وكذلك الكاتب الذي يفكر في أسلوبه وفي الأثر الذي يحدثه في قرائه ، لا يجيء ما يكتب إلا معوجاً سقيماً بعيداً عن الطبيعة .

وينصح جود الكاتب الناشئ لكي يعوّد نفسه ألا يهدف إلى ما يسمونه التأثير الأدبي أن يحتفظ لنفسه بمذكرات يومية . لأن المذكرات اليومية تدون عادة بقصد ألا يطلع عليها أحد غير مؤلفها ، والكاتب لا يحب أن يحدث تأثيراً في نفسه ، ولما تراه في مذكراته اليومية صادقاً طبيعياً ، والمذكرات قيمتها لأنها تعبير عن النفس صادق ، وتدريب على الأسلوب الصحيح ، وهي وحدها تنفرد بين ضروب الإنتاج الأدبي بأنها لا تكتب إلا لأن مؤلفها يحس الرغبة في تدوينها .

ويقول هازلت أحد كتاب النثر الإنجليزي المعروفين في القرن التاسع عشر : « إن أردت أن تكتب لغة إنجليزية صادقة مألوفة أصيلة فاكتب كأنك تتحدث حديثاً عادياً ، وليكن حديثك بسيطاً قوياً واضحاً . ولا تجعل سبيلك التكلف أو التأثير الخطابي » . ثم يقول وهو يوازن بين الألفاظ العادية والألفاظ الثمينة : « والكلمات كالعملة لا يكسبها قيمة إلا تداولها » .

ويقول ذلك الناقد الإنجليزي شرط الكتابة الجيدة « أن يكون الكاتب دقيق الملاحظة ، واضح الفكر ، وأن يختار الألفاظ الصحيحة ، وأن يكون مجدداً ، موجزاً ، أصيلاً ، ما وسعه ذلك . وفوق هذا كله ينبغي له ألا يخشى أن يكون طبيعياً » .

وليست هناك — بعد هذا كله — قاعدة ذهبية للكتابة الجيدة ، كما أنه ليست هناك قاعدة ذهبية للحياة الطيبة . الكتابة تعبير عن الشخص ، وما هو غذاء لجسمك سم لغيرك . وما يكون سبباً للإجادة عند شخص ما ، قد يكون شيئاً كريهاً يقع فيه الآخر ، والكاتب العظيم قد يخرق جميع القواعد ويبقى مع ذلك عظيماً .

محمود محمود

هل يمكنك مواجهة حقائق الحياة ؟

ترجمة حسين أحمد أمين

إن استعدادك وقدرتك على مواجهة حقائق الحياة لها أكبر الأثر فى سعادتك ونجاحك ، سواء فى وظيفتك أو فى حياتك العائلية .

والاختبار التالى سيبين لك درجة واقعيتك ، فاقرأ كل سؤال باهتمام وأجب عليه بعد تفكير « بنعم » أو « لا » .

١ — عندما تجد نفسك مجبراً على أداء عدة أشياء هل تبدأ بأسهلها ؟ .

٢ — هل تعتقد أن الرجال أذكى بكثير من النساء ؟ .

٣ — هل تفضل دفع الحساب فوراً على فتح حساب يدفع فيما بعد ؟ .

٤ — هل تعتقد أن الناس جميعاً ذوو ضمير ؟ .

٥ — هل تعيد عد نقودك عندما تتسلم مرتبك وعند سحب مبلغ من البنك وعند شراء حاجياتك ؟ .

٦ — هل تعتقد أنك إذا عشت من جديد الفترة فى حياتك أن تصرفك فيها سيكون أحسن من تصرفك السابق ؟

٧ — هل تعامل الناس على أنهم أمناء شرفاء جديرون بالثقة ؟ .

٨ — هل تشترى بعض الأشياء أحياناً بناء على نزوة عابرة ؟ .

٩ — هل تعتقد أن الحب الذى يدوم طويلاً مصدره الصداقة لا الخيال ؟ .

١٠— هل تظن أن صوتك فى الانتخابات المحلية والعامة غير مجد ؟ .

١١— هل تعتقد أن الخبرة فى الحياة أهم وأصدق من التعليم ؟ .

١٢— هل تظن أن سلوك الناس مبعثه المنطق أكثر من العاطفة ؟ .

١٣— فى حالة الطوارئ كما إذا اشتعلت النار فى منزلك أو أصابك المرض ، هل تعرف أى رقم تطلبه فى التليفون ؟ .

١٤— هل تعتقد أن الرجل يجب أن يكبر زوجته بثلاثة أعوام أو أكثر ؟ .

١٥— هل تعتقد أن دافع الناس فى سلوكهم هو الأنانية المحضة ؟ .

١٦ — هل تعتقد أن بالإمكان تجنب الحرب ؟ .

١٧ — هل تعتقد أن الاقتصاد فى النفقات يؤدى إلى التوفير المنتظم ؟ .

١٨ — هل تظن أن الحب والعاطفة يبقيان كما هما حتى ولو صدر عن الطرف الآخر الإغضاء والإهمال ؟ .

١٩ — هل تعتقد فى معظم حوادث الشجار والخلاف أن الخطأ صادر عن الطرفين ؟ .

٢٠ — هل تهرب دائماً من المواقف الحرجة والظروف المكتئبة ؟ .

* * *

الجواب الصحيح عن السؤال ذى الرقم الفردى هو نعم ، والجواب الصحيح عن السؤال ذى الرقم الزوجى هو لا ، لا أظن أنه من الممكن أن يجيب شخص عن كل الأسئلة بالإجابة الصحيحة .. فإذا كنت مصيباً فى كل الأجوبة فأنت واقعى إلى حد البرود والقسوة ، وأعتقد أنك لا تطيق الأشخاص العاطفيين .

إذا أجبت على ١٦ أو ١٨ سؤالاً بالإجابة الصحيحة فأنت واقعى ... فإذا أجبت على ١٣ أو ١٤ سؤالاً بالإجابة الصحيحة فأنت متوسط . ولكنك إذا أجبت على ١١ سؤالاً أو أقل بالإجابة الصحيحة فربما كان حكمك يوجهه هواك وعاطفتك ، وستصادف المتاعب فى اتصالك بالناس وحل المشاكل .

حسين أحمد أمين

حلم أفلاطون

أقصوصة لفولتير

كان « أفلاطون » كثير الأحلام ؛ ولكنه لم ينفرد وحده بتلك الميزة ، فسائر الناس يحلمون .

وقد رأى أفلاطون يوماً أن الطبيعة الإنسانية في العصور الخوالي كانت مزدوجة . فلما طغى الإنسان وأذنب ، نزل عليه عقاب الآلهة فجعل منه الذكر والأنثى .

وبرهن على أنه لا يوجد إلا خمسة كواكب وصل فيها الكمال إلى منتهاه ، لأنه — رياضياً — لا يوجد إلا خمسة أشكال كاملة .

وليست « جمهوريته » إلا حلماً من أحلامه الكبرى .

وقد رأى أيضاً أن النوم ينشأ من السهر ، وأن السهر ينشأ من النوم ، وأن الإنسان لابد فاقد بصره إذا تأمل الخسوف في غير حوض مملوء بالماء .

لقد كانت الأحلام يومئذ تضفي على صاحبها صيتاً وشهرة !..

وهاك أحد أحلامه ، وليس بأقلها تشويقاً وطرافة :

رأى ، فيما يرى النائم ، أن الإله « دِمْيورْجس » العظيم ، المهندس الخالد ، خلق الكواكب وبثها في الفضاء اللانهائي ؛ ثم أراد أن يمتحن أتباعه من الجن الذين شاهدوا أعماله ، فأعطى لكل منهم قطعة صغيرة من المادة وكلفه بتنسيقها وتنظيم أطرافها ، وكأنه « فِيدْياس » أو « زُوكْسيس » ، المثالان الشهيران ، إذ يكلفان تلاميذهما بصنع التماثيل واللوحات ؛ هذا إذا استطعنا أن نشبه جلائل الأمور بصغائرها .

وكانت قطرة الوحل التي ندعى بالأرض من نصيب الجني « دِمُجْرُجِنْ » . فلما سواها على الوجه الذي نراه اليوم ، ادعى أنه صنع آية فنية لا مثيل لها ، واعتقد أن ألسنة الغيرة لن تجد إليه من سبيل ، فانتظر الثناء والمديح حتى من زملائه صناع الكواكب الأخرى . فإذا هم يقابلونه بالنقد اللاذع والاستهزاء ، وهو حائر لا يدري سر حملتهم عليه .

قال له أحدهم ، وكان ظريفاً لاذع السخرية :

— حقاً ، لقد قمت بعملك خير قيام : شطرت كوكبك شطرين ، وفصلت بينهما بمحيط واسع كي تتعذر بينهما سبل الاتصال . لذلك سوف يموت الناس برداً فوق القطبين ، ويهلكون من شدة الحر فوق خط الاستواء .

« ثم إنك كنت حذراً حكيماً في تدبيرك ، فبسطت الصحاري الرملية الواسعة هنا وهناك ليهلك فيها المارة جوعاً وعطشاً .

« إني لجد معجب بدواجنك وخرافك وأبقارك ؛ ولكني ، إن أردت الصراحة ، لا أستسيغ ثعابينك وحشراتك . ثم لا أنكر ما لبصلك وخضراواتك من فائدة ، ولكني لا أرى في تركك النباتات السامة فوق سطح الأرض إلا أنك أردت موت سكانها . وأنت من جانب آخر قد صنعت من أنواع القردة ثلاثين نوعاً ، ومن أنواع الكلاب ما يفوق هذا العدد ؛ أما بنو الإنسان فلم تصنف منهم إلا أربعة أجناس أو خمسة . حقيقة أنك منحت ذلك الحيوان الأخير شيئاً تسميه بالمنطق ، ولكنه في الواقع منطق جد مضحك ، بل هو منطق يقترب كثيراً من الجنون . ويبدو لي أنك لا تعير تلك الدابة الإنسانية شيئاً من الأهمية ؛ إذ سلطت عليها عدداً عديداً من الأعداء ،

ولم تهبها من وسائل الدفاع إلا القليل ؟ ووقفت عليها الأمراض الكثيرة ، ولم تعطها من الدواء إلا النزر اليسير ؟ وبثثت فيها كل تلك العواطف المتأججة ، ولم تلهمها من الحكمة إلا الضئيل . وأنت ، فيما يبدو لى ، لا تبغى لها بقاء على ظهر البسيطة . فإننا إذا طرحنا جانباً ما نسجت حولها من مهالك وأخطار رأينا أنك أحكمت التدبير والتنسيق ، فجعلت من الأرض مجالاً للأوبئة الفتاكة التى تودى بحياة السكان كل سنة وتنغص العيش على تسعة الأعشار الباقية . ولم تكتف بذلك ، بل زدت عليه أن جعلت نصف الناجين لا يشغلهم شاغل إلا المحاكم والقضايا ، بينما النصف الثانى فى شقاق وقتال دائمين .

« لسوف يدينون لك حقاً بالكثير ! ولقد صنعت ، ولا شك ، آية فنية لا تضارع !.. » .

فاحمرت وجنتا ديمرجس ، وأحس أن فى عمله نقصاً مادياً ونقصاً معنوياً . ولكنه أصر على أن الخير فى كوكبه يفوق الشر بمراحل . فقال :

— من السهل الميسور أن تنتقد كل عمل . ولكن هل تعتقدون حقاً أنه من السهل الميسور كذلك أن تصنع حيواناً حكيماً لا يخرج عن حدود الحكمة ، وحراً لا يبتذل حريته ؟ وهل تتخيلون أنه يمكننا ، وعلينا استنبات آلاف الأشجار ، أن نمنع نمو بعض الحشائش الطفيلية السامة ؟ ثم هل ترون أنه فى استطاعتنا ، ولدينا كمية محدودة من الماء والرمل والطين والنار ، أن لا نمد الصحارى أو نبسط البحار ؟.

« لقد فرغت أنت ، سيدى الفيلسوف الساخر ، من تنسيق كوكب المريخ . فلننظر كيف قمت بمهمتك ، وكيف سويت الشريطين الطويلين ، ثم كيف نظمت لياليك التى يختفى فيها القمر ، ولننظر إذا لم يكن من بين من خلقت حمقى ومجانين ومرضى » .

وتأمل الجن أحوال كوكب المريخ فوقعوا على الساخر المتظرف باللوم والتقريع . ولم ينج صاحب زحل الحكيم كذلك من مهاجمتهم . أما إخوانه ، أرباب المشترى وعطارد والزهرة ، فقد عانوا نقداً مريراً .

وراح كل جنى يؤلف الكتب الضخمة والرسائل فى نقد تلك الكواكب ، وتفرق الجن شيعاً يسخرون من بعضهم ، وينظمون قصائد الهجاء ، ويشددون بعيوب منافسيهم .

واشتد النزاع ، وغلى مرجل الفتنة ! وأخيراً قام إليهم الإله ديمورجس الخالد ، فأسكتهم جميعاً ثم خطب فيهم قائلا :

« لقد صنعتم ، فيما صنعتم ، خيراً وشراً ، لأنكم جميعاً لم تبلغوا درجة الكمال برغم ذكائكم العظيم . ولسوف تدوم أعمالكم بضع مئات الآلاف من السنين فقط . وإذا ما انقضى أجلها ، فسوف تصنعون خيراً منها ، إذ تكونون على حظ أوفر من التجربة . ولكن ليس لغيرى أن يصنع أشياء كاملة خالدة ، فتلك مقصورة علىّ وحدى .

* * *

هذا هو ما كان يلقيه أفلاطون على أتباعه .

فلما انتهى من حديثه قال له أحدهم :

« ثم استيقظت من نومك !.. » .

تلخيص

محمد عبد الحليم محمود

٢ - رسائل الآباء إلى الأبناء

للأستاذ محمد عبد الغنى حسن

قلنا إن المرحوم أحمد حافظ عوض أرسل نصائحه الأبوية إلى ولده المغترب فى بيروت طلباً للعلم ، كما استحضر أحمد أمين بك فى ذهنه ولده المغترب فى انجلترة طلباً للعلم ليزوده برسائل الوالد إلى الولد ؛ وهذه النصائح إلى الابن الغريب تذكرنا بتلك النصيحة التى أرسلها الشاعر الأديب ابن سعيد إلى ولده « على » الرحالة المؤرخ الأندلسى المشهور ...

وإذا كنا نعرف أحمد حافظ عوض ، وأحمد أمين ، لأنهما من أعلام زماننا هذا ، فلا بأس أن نقف وقفة قصيرة مع « على بن سعيد » الذى كان من علماء الأندلس فى القرن السابع الهجرى ، وقد رحل عنها إلى الشرق ، وجاء هنا إلى مصر وأقام بالقاهرة ، وهو الرحالة الذى برم بالقاهرة برماً شديداً ، وضاق بمصر وأهلها فى العصر المملوكى الأول ، ولاحظ التواء دروبها وكثرة الغبار بها مما يكرب النفس ويزهق الحس ، حتى قال فيها هذين البيتين :

يقولون سافر إلى القاهره ... ومالى بها راحة ظاهره

زحام وضيق وكرب وما ... تثير بها أرجل سائره ...

إلا أنه مع ذلك قد سجل بعض محاسن القاهرة ، كبركة الفيل التى يقول فيها :

أنظر إلى بركة الفيل التى اكتنفت ... بها المناظر كالأهداب للبصر

كأنما هى والأبصار ترمقها ... كواكب قد أداروها على القمر

أما أبوه موسى بن سعيد فكان ممن رحلوا إلى الشرق أيضاً ، وكان شاعراً أديباً كبيراً ، فلما أراد ولده « على » النهوض من ثغر الإسكندرية إلى القاهرة كتب له أبوه وصية شعرية ، ثم أردفها برسالة نثرية تعد من أبلغ ما كتب الآباء إلى الابناء ، وفى النصيحة الشعرية من حنان الأبوة وإشفاقها ما تعبر عنه هذه الأبيات :

أودعك الرحمن فى غربتك ... مرتقباً رحماه فى أوبتك

وما اختيارى كان طوع النوى ... لكننى أجرى على بغيتك

فلا تطل حبل النوى إننى ... والله أشتاق إلى طلعتك

من كان مفتوناً بأبنائه ... فإننى أمعنت فى خبرتك

فاختصر التوديع أخذاً ، فما ... لى ناظر يقوى على فرقتك

وفيها من تقدير النصيحة وكونها خلاصة التجارب ما تعبر عنه الأبيات :

واجعل وصاتى نصب عين ولا ... تبرح مدى الأيام من فكرتك

خلاصة العمر التى حنكت ... فى ساعة زفت إلى فطنتك

فللتجاريب أمور إذا ... طالعتها تشحذ من غفلتك

فلا تنم عن وعيها ساعة ... فإنها عون إلى يقظتك

وفيها من آداب السلوك وقواعد السير فى الحياة ومخالطة الجماعات ما تدل عليه هذه الأبيات :

وانطق بحيث العى مستقبح ... واصمت بحيث الخير فى سكتتك

ولا تكن تحقر ذا رتبة فإنه أنفع في غربتك

والرزايا وثبة ما لها إلا الذي تذخر من عدتك

ولا تقل : أشكو لي وحدتي

فقد تقاسي الذل في وحدتك

والزم الأحوال وزناً ، ولا

ترجع إلى ما قام في شهوتك ...

ولم يكتف الوالد الشاعر بقصيدة من شعره تربو على الأربعين بيتاً ، بل التجأ في وصاته الحكيمة إلى أقوال من الشعراء الآخرين لعلها تخف على الحفظ وتعلق بالقلب ... فيستعير قول الشاعر الأول :

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاث فمنهن حسن الأدب

وثانية حسن أخلاقه وثالثة إجتناب الريب

ثم يقترض قول الشاعر الآخر :

يحسد رفيع القوم من كان عاقلاً

وإن لم يكن في قومه بحسيب

إذا حل أرضاً عاش فيها بعقله

وما عاقل في بلدة بغريب

ثم يقترض هذا البيت الذي يعلي بقيمة العقل ، وبقيم الكرم والصبر :

ولو أن أوطان الديار تبيَّنت بكم لسكنتم الأخلاق والآدابا

ثم ينتقل به بعد ذلك إلى نصائح من النثر أودعها حكمته وتجربته ، فينصحه بتجنب الساخطين دائماً ، المتبرمين دائماً ، الذين أحالهم الضعف والعجز إلى الوقوع في الناس قائلاً :

« ولا يفسد خاطرك مَنْ جعل يذم الزمان وأهله ، ويقول : ما بقي في الدنيا كريم ولا فاضل ، ولا مكان يرتاح فيه ، فإن الذين تراهم على هذه الصفة أكثر ما يكونون ممن صحبه الحرمان ، واستخفت طلعته الهوان ، وأبرموا على الناس بالسؤال فمقتوهم ، وعجزوا عن طلب الأمور من وجوهها ، فاستراحوا إلى الوقوع في الناس وإقامة الأعذار لأنفسهم بقطع أسبابهم ، وتعذر أمورهم ... »

على أننا لو عدنا القهقرى إلى العصر الجاهلي لوجدنا نصائح الآباء إلى الأبناء لم يخل منها شعرهم ، فهذا خطيبهم وحكيمهم « ذو الأصبع العدواني » تدركه الوفاة ، فلا يدع ساعة الاحتضار تمر من غير أن يوجه إلى ابنه « أسيد »

نصيحة تعد دستوراً موجزاً للنجاح في الحياة ، والسيادة فيها ، فيقول بعد كلام : « ألن جانبك لقومك يحبوك ، وتواضع لهم يرفعوك ، وابسط لهم وجهك يطيعوك ، ولا تستأثر عليهم بشيء يسودوك » .

فإذا أقبلنا على عصر صدر الإسلام وجدنا أجلاء الصحابة رضي الله عنهم يكتبون إلى أبنائهم ناصحين ، فهذا الخليفة عمر بن الخطاب يخرج ابنه عبد الله في غيبة يغيبها ، وغربة سفيرة يغتربها ، فيكتب إليه : « أما بعد : فإن من اتقى الله وقاه ، ومن اتكل عليه كفاه ، ومن شكر له زاده ، ومن أقرضه جزاه ، فاجعل التقوى عمارة قلبك ، وجلاء بصرك ، فإنه لا عمل لمن لا نية له ، ولا خير لمن لا خشية له ، ولا جديد لمن لا خلق له » .

وهذا الخليفة الرابع الإمام علي بن أبي طالب يكتب إلى ولده الحسن عليهما السلام رسالة نصحية ، فيها روح الإمام وزهده في الدنيا ، ورغبته فيما عند الله وخشيته منه ؛ يقول فيها : « واحفظ وصيتي ولا تذهب عنك صفحاً ، فلا خير في علم لا ينفع » . وهو هنا كشكل والد ناصح بأس ولده بحفظ الوصية ، كما صنع « ابن سعيد » في قوله :

واحفظ وصاتي تصب عيني ولا

تبرح مدى الأيام من فكرتك

ثم يقول له بعد ذلك : « فبع دنياك بآخرتك ، ولا تبع آخرتك بدنياك ، ودع القول فيما لا تعرف ، والأمر فيما لا تكلف ، ... وخض الغمرات للحق ، ولا تأخذك في الله لومة لائم » .

ثم نراه — عليه السلام — لا يخص واحداً من أبنائه بوصية ، فيكتب إلى ابنه محمد بن الحنفية رسالة حكمية يضع له فيها من دسائر الأخلاق ما يرتفع بالنفوس إلى أعلى المقامات ، فيقول له مثلاً : « وأمسك عليك لسانك ، فإن تلافيك ما فرط من صمتك أيسر عليك من إدراك ما فات من منطقك ، واحفظ ما في الوعاء بشد الوكاء ، لحسن التدبير مع الاقتصاد أبقى لك من الكثير مع الفساد ، والحُرفة — أي الضيق — مع العفة خير من الغنى مع الفجور » .

• • •

فإذا أقبلنا على العصر الأموي رأينا اثنين من رجاله ينصحان ابنيهما نصائح لم يضعها تاريخ الأدب ولم يغفلها

مؤرخوه . فهذا « خالد بن صفوان بن عبد الله المنقري » ، وكان جليساً لعمر بن عبد العزيز وهشام بن عبد الملك ، ينصح ابنه بأقوال منها : « كن أحسن ما تكون في الظاهر حالاً ، أقل ما تكون في الباطن مآلا ، ودع من أعمال السر ما لا يصلح لك في العلانية » . وهو هنا في هذه الحكمة الأخيرة يوصيه بأن يجعل ضميره رقيباً عليه في خلوته ، وسلطاناً عليه في وحدته . فيستحي أن يصنع في السر ما يخشى منه العلانية ، وتلك أسمى أنواع الرقابة الخلقية ، كما كان شاعرنا الغزل العفيف يستحي حبيبته في غيبتها ، فلا يلوث حبه لها بحب آخر ، كأن رقيباً منها يراقبه من وراء الغيب :

وإني لأستحييك حتى كأنني　　علي بظهر الغيب منك رقيب

وهذا « المهلب بن أبي صفرة » ، وهو من هو في قتال الخوارج ، يكتب إلى أبنائه رسالة في النصح يقول فيها : « يا بني ! تباذلوا تحابوا ، وإن بني الأم يختلفون فكيف بنو العلات ؟ إن البر ينسأ في الأجل ، ويزيد في العدد ، وإن القطيعة تورث القلة ، وتعقب النار بعد الذل ، واتقوا زلة اللسان ، فإن الرجل تزل رجله فينتعش ، ويزل لسانه فيهلك » ، وهذه الحكمة الأخيرة هي نثر البيت الشعري المعروف :

يموت الفتى من عثرة بلسانه

وليس يموت المرء من عثرة الرجل

* * *

فإذا أقبلنا على العصر العباسي رأينا « عبد الملك ابن صالح بن علي بن عبد الله بن عباس » ، وهو من العباسيين في مقام القيادة والسيادة ، ينصح ابنه في رسالة أبوية جليلة يقول فيها : « احلم ؛ فإن من حلم ساد ، ومن تفهم ازداد ، والق أهل الخير ؛ فإن لقاءهم عمارة للقلوب ، والصبر على المكروه يعصم القلب ، والمزاح يورث الضغائن ، وحسن التدبير مع الكفاف خير من الكثير مع الإسراف ، والاقتصاد يثمر القليل ، والإسراف يبير الكثير .. والعفة مع الحرفة خير من الغنى مع الفجور » ...

ونلاحظ هنا أن الحكمة الأخيرة في هذا النص قد جاءت بألفاظها في رسالة الإمام علي بن أبي طالب إلى ولده محمد بن الحنفية عليهما السلام .

* * *

وإذا كان الأستاذ أحمد أمين قد أشار في كلمة من مقدمة كتابه إلى نصيحة « لقمان » لابنه التي جاء ذكرها في القرآن الكريم ، فإن نص هذه الرسالة الأبوية الحكيمة قد ذكرته كتب الأدب والأخبار بطرق مختلفة . على أن بين أيدينا نصاً لهذه الرسالة ذكره صاحب « العقد الفريد » وهي على وجازتها تثير في النفس أسئلة كثيرة عن شخصية لقمان ولغة رسالته ، أكانت العربية أم كانت أختاً من أخواتها السامية ، وعن كيفية وصول هذه الرسالة إلى الأدب العربي .

وأغلب ما قرأناه من رسائل الآباء إلى الأبناء في الأدب العربي مكتوب بلغة النثر العالية التي قصد كاتبوها إلى التأنق فيها ، وكانت تتبع روح كل عصر وطريقته في الكتابة ، فلم تخل من سجع في عصور السجع ، ولم تخل من ترسل في عصر الترسل ، كرسائل الأحمدين : أحمد حافظ عوض ، وأحمد أمين . أما النصائح الأبوية الشعرية فمثل وصية « ابن سعيد » لولده « علي » لم تكن ، أو لم يقدر لها أن تكون ، وحيدة في الأدب العربي ؛ فإن وصية « عبد الله فكري باشا » الشعرية أولى أن يشار إليها في هذا المقام ، وهي تلك الوصية التي يقول منها الوالد الشاعر لولده :

إذا نام غر في دجى الليل فاسهر

وقم للمعالي والعوالي وشمر

وخل أحاديث الأماني ، فإنها

علالة نفس العاجز المتحير

وتزيد أبياتها على العشرين بيتاً .

* * *

وبعد ، فهذه خطرات ومذاكرات ومراجعات أثارتها في نفسي قراءة كتاب « إلى ولدي » للدكتور أحمد بك أمين ، جعل الله من أولاده جميعاً قرة عين له ، وأمتع الأدب دائماً بإنتاجه الخصيب .

محمد عبد الغني حسن

مقومات الشعر الانجليزى الحديث

— ٤ —

للدكتور رشاد رشدى

العودة إلى حياة الروح :

كان من الطبيعى أن يحاول الشعراء إيجاد مخرج من هذه الآلية التى اصطبغت بها الحياة الحديثة ، ولما كانت حياة الآلة لا تعدو فى الواقع أن تكون حياة المادة ، نرى الشعراء الانجليز فى العصر الحديث يدعون إلى حياة الروح ، إلى العودة إلى الإيمان الذى فقدته أوربا الحديثة بعد أن اتضح أن الآلة أو المادة لم تجلب إلا الجمود والشقاء ، وبعد أن كانت الآلة إلهاً يقدسه عصر بأكمله من الناس والكتاب ، ويعرضون فى هذا الدين الجديد عن الحياة الروحية ، نجدهم الآن يعودون إلى حياة الروح ، كأنها المخرج الوحيد من حياة المادة ، لذلك نرى جنباً إلى جنب مع الثورة على حياة الآلة ، نزوعاً قوياً إلى الدين يبلغ أحياناً حد التصوف ! فيسعى الشاعر إلى إيجاد قيم روحية للحياة أو بعث القيم الروحية القديمة التى تنطوى عليها الأديان .

وقد نجد النزعتين معاً فى وقت واحد فى قصيدة واحدة كما فى قصيدة الشاعر (توماس ستيرن إليوت) المسماة : (الرجال الجوف) ، إذ بعد أن يعرض فيها لفقر الحياة الحديثة وجدبها وآليتها ، يختم قصيدته بصلاة للخالق يقول فيها :

بين الفكرة والحقيقة
وبين العزم والفعل
يقوم الظل —
لأن الملك يا إلهى ملكك —
وبين التصميم والخلق
وبين العاطفة — فى القلب
وصداها فى القلب الآخر
يقوم الظل
لأن الحياة طويلة للغاية
وبين الرغبة وبلوغها
وبين القدرة والخلق
وبين الروح والجسم
يقوم الظل
لأن الملك يا إلهى ملكك .

● ● ●

والالتجاء إلى الخالق بين شعراء هذا العصر أمر شائع مألوف ، إذ يرون فيه إذكاء للحس وقوة للروح ، تساعدها فى عراكها مع المادة وتعينها فى التغلب عليها ، وكثيراً ما يذكر الشاعر الله وما يدين له به شاكراً ممتناً ، كما يفعل الشاعر المعاصر لوى ما كينس فى قصيدته قصيرة بعنوان : (الدائن)

إذ يقول :

الهدوء الذى يأتى مع نسمات الصيف الرقيقة
لن يشيق دينى نحو الله
لأنى أرى أصبعه فى كل ما حولى .
قد ينبلد الحس منى حيناً بالسكينة
وحيناً بالجلبة وأحياناً بالأحلام
وأحياناً بالأوهام —
حتى يتعمد الله عنى ويغلق الباب .
ولكنى الآن أجلس إلى جانب النار
فى وهجها الدافئ المسترسل —
فآه ما أجمل الإحساس بالسلام والسكينة
ولكن حتى هذا لا يمكن أن يشيق
ما أدين به لله
لأن روحه تنتشر فى كل ما أراه —
فوقى وتحتى وجانبى وفى كل مكان
اليوم وأمس وغداً وفى كل زمان

● ● ●

وتقوى هذه الرغبة أو النزعة الدينية إدراك الكتاب للحقيقة الدائمة ، وهي أن المدنية الصناعية الحديثة رغم ما جلبت من خير مادى للإنسان ومعرفة وعلم ، فهي قد أحدثت بينه وبين كنه الحياة ، وأبهمت معناها ، وطمست إدراكه الروحى ، فخلقته أشقى مما كان قبل مجيئها ، فهي لم تزد حكمه ولم توسع مدى إنسانيته ، بل شغلته عن نفسه ؛ فأضاع الحياة في العيش ، وأضاع العلم في كل ما جمع من شتى المعارف ، واتسعت الشقة بينه وبين الخالق ، كما يقول الشاعر (توماس ستيرن إليوت) في قصيدة نقتبس منها الأبيات التالية :

النسر يحلق في أجواز الفضاء
والصياد مع كلابه يتبع فريسته
آه لحركة النجوم التي لا تقف
آه لتتابع الفصول الذى لا يخطئ
وآه لدنيا الربيع والخريف
والميلاد والممات
لحلقة الفكرة والفعل
مبتكرات لا حدّ لها وتجارب بلا تجارب
وكل هذا يجلو لنا العلم بالحركة ولكن لا بالسكون
والعلم بالكلام ولكن لا بالصمت
والعلم بالكلمات ولكن الجهل بالكلمة المقدّسة .
كل علمنا يقربنا من جهلنا
وكل جهلنا يقربنا من الموت
من الموت يقربنا لا من الله
فأين الحياة التي فقدناها في معيشتنا
وأين الحكمة التي فقدناها في علمنا
وأين العلم الذى فقدناه في معرفتنا ؟
عشرون قرناً من الحركة الدائمة
تبعدنا عن الله وتقربنا من التراب .

• • •

وفى أغلب الأحيان نجد هذه النزعة الدينية تتخذ شكلاً رمزياً قريب الشبه بالتصوف فلا يذكر اسم الخالق ، ولكن يوحى به ، ويعبر الشاعر أو الكاتب عن رغبته في الاتصال الروحى بغيره من الكائنات ، أو بالكائن الأعظم ، وعن فرحته وانتشائه لهذه الصلة الروحية التي تربط بينه وبين الكون ، وهى فرحة صوفية كتلك التي نحسها في القصيدة التالية للشاعر (دافيد هربرت لورنس) بعنوان (أغنية الرجل الذى أدرك المعنى) وفيها يصور غبطة قوية استولت على نفسه وأشفقت على فؤاده ، فهو يريد أن يستسلم لها ، بل وأن يهب لها نفسه ، لأنها ستصل بينه وبين الكائن الأعظم ؛ فيقول :

لا — لست أنا . بل هى الريح التي تهب داخلى
الريح الرقيقة التي توجه الزمان توجيها جديداً .
لو كنت فقط أدعها تحملنى وتنقلنى —
لو كانت تستطيع أن تنقلنى —
وأجمل من كل هذا . لو كنت أستسلم وأدعها تستعيرنى —
أدع الريح الرقيقة الجميلة تستعيرنى وتأخذنى معها في تجوالها —
خلال عالم الفوضى هذا .
لو كنت فقط حاداً — صلباً — ولو حملتنى الريح
إذاً لانشق الصخر ولحدثت المعجزة .
آه للجمال الذى ينطوى عليه صدرى وتكتنّه نفسى
أود لو أكون نبعاً صافياً — منهلاً رقراقاً
لا يسمع له صوت أو همس .
ما هذا الدق ؟
ما هذا الدق على الباب في الليل ؟
من يريد بنا سوءاً ؟
لا . لا . إنهم الملائكة الثلاثة
افتح الباب ياصاحبى — افتح الباب .

• • •

على أن النزعة الحديثة إلى العودة لحياة الروح قد اتخذت خلاف المظهرين اللذين أشرت إليهما ، وهما الرجوع إلى الدين والتصوف ، مظهراً ثالثاً ، هو الإشادة صراحة بقيمة الروح ، وإعلان وجودها والإيمان بهذا الوجود إيماناً لا يقبل الشك كما يتبين في القصيدة التالية للشاعر (جورج وليلم رسل) وعنوانها (الخلود) . يؤكد الشاعر وجود الروح وأننا لن ننال الخلود إلا إذا أذكينا نيرانها ، فيقول :

يجب أن نتلاشى كالدخان أو نعيش في نار الروح
لأننا لا نستطيع أكثر مما يستطيع الدخان العودة
إلى اللهب — أن نبق
إذا تحولت أفكارنا إلى أحلام وإرادتنا إلى شهوة
بل نتلاشى كالدخان رغم أن النار قد تسترسل في الاحتراق .

أضواء جمة عديدة تتألق فى سماء حياتنا
بينها الروح بكل تأكيد ومنها نستمد الخلود .
وفى نار الروح نحيا — وإلا فإننا نسلك
سبلاً مختلفة — عديدة — طويلة أو قصيرة
ولكنها جميعاً تؤدى إلى الفناء .

• • •

ولكن كيف نحتفظ بحياة الروح — أو كيف تتلف روح الإنسان إذاً ما دامت قد خلقت معه وما دام كيانها لا شك فيه ؟ القصيدة التالية للشاعر (توماس ستيرن إليوت) تشرح لنا ما يصيب الروح من تلف فى أنظمة الحياة الآلية الحديثة وكيف أن الإنسان يقتلها بيده : —

من يد الخالق تنطلق الروح فى بساطتها
إلى عالم كله حركة وأضواء متغيرة .
فمن لون باهت إلى قاتم — ومن جاف
إلى رطب ، ومن بارد إلى دافىء —
تتحرك بين القاعد والناهض
تقف لحظة وتسقط أخرى —
تحتضن الدمى أو تقدم وجهها للتقبيل
تتقدم فى جرأة — وتخشى الخطر فى سرعة
فتتراجع إلى حيث الذراع الممدودة أو اليد المبسوطة
بها رغبة إلى الاطمئنان —
هاشة — جذلة لمرأى شجرة عيد الميلاد البراقة
تفرح بالريح — وبالشمس وبالبحر
تتأمل ما ترسمه أشعة الشمس على الأرض من صور
تخلط ما بين الحقيقة والخيال .
يسرها أن تلعب الورق وتتمثل نفسها ملكاً أو ملكة
وأن تستمع لما صنع الجن والحوارى ولما يروى الخدم
ولكنها تنمو — ومع نموها يثقل العبء الذى
تحمله — ويبدأ يضايقها ويحيرها
يوماً بعد يوم
وأسبوعاً بعد أسبوع
يضايقها ويحيرها
ما تتلقى من أوامر
وأن هذا لازم وذلك جائز
وما ترغب فيه وما يجب أن تمتنع عنه
وهكذا مع ألم العيش ومخدّر الأحلام
تتضاءل الروح فى مقعدها
إلى جانب النافذة — خلف دائرة المعارف البريطانية
وهكذا تخرج الروح من يد الزمن
مضطربة — أنانية — مشوهة — عرجاء
لا تستطيع السير قدماً أو الرجوع إلى حيث كانت —
تخشى الحقيقة الدافئة والخير المنبسط
تنكر الحياة —
ظلاً لنفسها — وشبحاً من أشباح
الظلام الذى يخيم عليها
غير مخلفة وراءها إذا ذهبت
سوى بضع أوراق مبعثرة فى حجرة متربة

• • •

ولكن رغم تلف الروح وإمكان اختفائها فإن الشعر الحديث لا يؤمن بموتها ؛ فهى حية رغم أننا قد نقتلها بما نكبلها من أغلال ونحيط بها من قيود مادية تعمل على إضعافها ، ولكن نارها لا تخبو وكيانها لا ينطمس ، كما يغنى الشاعر (وليم جيمز ترنر) فى قصيدة قصيرة بعنوان (فكرة) يقول فيها :

أليس غريباً أن يموت الرجال
قبل أن تموت أجسامهم ؟
وأن تختفى أرواح النساء من عيونهن ؟
غريب — ولكنه الواقع —
أين ذهبت — وماذا كانت
تلك الومضات التى صيغت من نور
أدق وأرق من ذلك الذى
يتراءى خلف الجسد الشفاف الناعم
أو العيون البراقة
إنها النار التى لا تموت
مهما أبعدت
فكيانها لا ينطمس
لأنها تعكس بريقها
كما تفعل الشمس على
القمر الميت البارد

(البحث بقية) رشاد رشدى

من مطالعات الكتب

للأستاذ الدمرداش محمد بك

عثرت من عهد قريب وأنا أنبش فى أكداس الكتب المحشودة حشداً بإحدى المكتبات على كتاب صغير عنوانه: «منظر أوربا العجيب، وملخص رحلات نجيب» لمؤلفه نجيب حسين الجندى — والكتاب مطبوع بالقاهرة سنة ١٩١١.

والذى لفت نظرى فى هذا الكتاب أمران: الأمر الأول أن مؤلفه من سكان القرى بالريف المصرى؛ فقريته طنامل بمديرية الدقهلية — ولم يكن سكان الريف فى ذلك العهد ممن يهتمون بالرحلة خارج القطر — والأمر الثانى أن المؤلف قام برحلاته هذه ولم تتجاوز سنه العشرين من عمره، وهذا أمر كان نادر الحصول بالنسبة لشباب ذلك الجيل. والذى زاد فى إعجابى أيضاً أن المؤلف — كما يقول فى مقدمة كتابه — لم يكن على قسط يذكر من الثقافة؛ فوفاة والده فى سنة ١٨٩٧ اضطرته إلى الانقطاع عن المدرسة وهو لا يزال حدثاً، وإلى الإقامة فى بلده طنامل لإدارة أملاكه.

ثم يقول المؤلف إنه لما كان بطبعه محباً للاطلاع خامرته فكرة السفر والرحلة لاستكمال ما فاته من أسباب العلم والمعرفة، وكانت باكورة أسفاره الارتحال إلى الآستانة فى سنة ١٩٠٤، ويتبين من مقدمة الكتاب أن الذى هداه إلى هذا الاختيار نزعة دينية فى نفسه وأخرى جنسية، «فالآستانة العلية — كما يقول — دار الخلافة العظمى، ومقر عرش آل عثمان العظام، وعاصمة الممالك العثمانية التى من ضمنها مصر». ثم يشير المؤلف إلى نزعته الأخرى عندما يقول: «إنه ولد من أبوين وفد آباؤهما على مصر من بلاد الأناضول، وكانوا من الضباط الترك الذين اشتغلوا بالجيش المصرى».

وقد رأى المؤلف بعد أن زار تركيا وأوربا أن يجمع مشاهداته فى هذه البلاد فى كتاب، وهو هذا الكتاب الذى نحن بصدده، وقد جعله هدية زهيدة لأبناء وطنه الأعزاء...

ومع أن المؤلف محدود الثقافة؛ فإن وصفه لمشاهداته وتصرفاته فى دار الغربة يدل على فهم سليم، ودقة فى التعبير، وخيال خصب.

يقول المؤلف فى وصف سفره: ركبت الباخرة من ثغر الإسكندرية يوم أول أغسطس بعد توديع الآل والأصدقاء، ولما كانت تلك هى أولى رحلاتى إلى بلاد أجهلها ولا أعلم إلا القليل من عاداتها، وكانت سنى لم تتجاوز العشرين؛ فما سرت قاصداً الباخرة حتى شعرت بضيق بالصدر ووحشة، وكأنى كنت قادماً على شىء هائل كما يصوره الوهم لمن لم يسعده الحظ على اختراق البحار، وكانت نفسى تحدثنى عن العدول عن السفر، ولكن وجود بعض الأقارب والأصدقاء بصحبتى جعلنى أتشجع، ولا أظهر نفسى أمامهم بمظهر الخائف الوجل... فلما تحركت الباخرة وسارت باسم الله مجراها، وقفت أنظر إلى الإسكندرية التى كانت تغيب عن نظرى قليلاً قليلاً حتى توارت عنا بعد أن اخترقنا البوغاز وابتعدنا عنها بضعة أميال، وعندها شعرت بالوحشة والغربة... وقضيت ليلتى وعيناى لم يعاودهما النوم، بل ظلتا مفتوحتين إلى الصباح... وصعدت إلى ظهر الباخرة، واستلقيت على ذلك المقعد المستطيل؛ فعرفنى أحد الأروام من أصحاب الفنادق بالمنصورة، وجاء يحدثنى وقد أذهب عنى الوحشة... وصرت أنظر إلى ماء البحر الضارب إلى الزرقة وإلى السماء الصافية، والنسيم العليل، فعاودتنى قوتى وصرت أتأمل فى قوة الله جلّ وعلا خالق السموات والأرض، وكيف أوجد العالم، وجعل من الأرض يابسة وماء تسير فيه البواخر حاملة لخلقه من بنى الإنسان.

وبعد أن عرّجت به السفينة على ثغر بيريه باليونان، وثغر أزمير بالأناضول تصل به إلى مدخل الدردنيل، وكان وقت الفجر والركاب نيام... «فنهضنا وصعدنا إلى ظهر الباخرة ونظرنا إلى ذلك المضيق العجيب، الذى أكسبته الطبيعة منعة وقوة لأن طريقه متعرجة؛ فبينا تسير الباخرة فى بحيرة تحيط بها الجبال من كل الجهات؛ إذ تظهر أمامك

فتحة يقوم على حافتيها جبلان عاليان يكادان يتلطمان والحصون بأسفلهما ، فتمر السفينة إلى مضيق ، وهكذا من بحيرة إلى مضيق ومن مضيق إلى بحيرة .. وأخيراً دخلنا بحر مرمرة ، وكانت تظهر أمامنا جبال الروملي وبعض هضاب آسيا حتى وصلنا إلى استانبو وصرنا بحذاء جزائر الأمراء ، وظهرت لنا الأستانة بمظهرها البديع ، وقد أكسبتها مساجدها القائمة فوق ربواتها العالية بمناراتها المتعددة ، منظراً يكل عن وصفه الواصفون ، والباخرة سائرة إلى أواسط المدينة ؛ لأن مباني المدينة الشاهقة كائنة على هضاب الأناضول والروملي ، فتظهر كأنها ملتفة حول مرسى البواخر ... ثم نزلنا من الباخرة إلى رصيف الجمرك حيث مكثنا ما يزيد على ساعتين ، قضينا أكثرها مع عمال الباسبورتات في سؤال وجواب ، حتى تضايقنا كثيراً ، خصوصاً من تلك الأسئلة الثقيلة المختصة بكيفية حضورنا ... ثم أقلتنا عربة من الجمرك إلى الفندق الذي اختاره لنا صاحبنا الصائغ المصري الذي تعرفنا به على ظهر السفينة ... ولما دخلنا الفندق وجدناه كثير الشبه بالفنادق الكائنة بالحي الحسيني بمصر ، ولكنه يزيد عنها في النظافة وبطابقها في النظام حيث يوجد في أسفله قهوة عمومية يؤمها الناس من جميع الأجناس ، وبالأعلى توجد الغرف المعدة للنوم كل غرفة بها ثلاثة أو أربعة من الأسرة ، ولما قاصدين الصعود إلى غرفتنا فلاحظنا وجود كثير من الأحذية بأسفل المدرج ، وما كدنا نعلوه حتى أقبل خادم الفندق يشير إلينا بتغيير أحذيتنا بأخرى من الخشب (القباقيب) الموضوعة أسفل المدرج قبل صعودنا إلى الغرف فصدعنا لأمره ، وخلعنا أحذيتنا ونحن نخشى ضياعها بين تلك الألوف من الأحذية الملقاة هناك ... فاشمأزت نفسي من حالة الفندق ونظامه لأني لم أتعود النوم إلا في غرفة خاصة بي ، وعولت أن لا أقيم به إلا ريثما أجد الفندق المناسب ... وتذكرت أني سمعت وأنا بمصر بوجود حي راق بالأستانة يدعى (بيك أوغلي) ... وفي الصباح نزلت إلى الشارع واستفهمت من أول رجل صادفته عن الطريق الموصل إلى (بيك أوغلي) فدلني إليه ... ووصلنا إلى جسر (غلطه) ، وعندما أردنا اجتياز الجسر ، وجدنا بأوله بعض الحراس الذين يجبون من كل راجل يمر فوق الجسر عشر بارات ، ومن كل عربة مائة بارة ، ويستثنى من ذلك العرب الذين يلبسون أزياءهم العربية والعلماء وحفظة القرآن وتلاميذ المدارس ورجال الجندية ... ثم وصلنا محطة (بيك أوغلي) ومنها إلى حي بيرا ، وسرنا هناك في شوارع نظيفة كل مبانيها من الطراز الأوربي ، وبها الفنادق العظيمة والميادين الواسعة الجميلة ... ونزلنا بأحد الفنادق بحي بيرا وتعرفنا به بأحد العرب الذين قدموا من مكة منذ سنتين ، واستوطنوا الأستانة هرباً من اضطهاد عون الرفيق باشا شريف مكة له ، ويدعى الشيخ عبد القادر كردي .

وبعد الفندق استأجر المؤلف غرفة في منزل بحي (شثلي) ، وكانت نوافذ غرفته تشرف على أجمل أحياء الأستانة ، وعلى مياه البوسفور وجبال الأناضول ، وبعد أن استقر بالمؤلف المقام وطابت له الحياة بمنزله الجديد ، أخذ في التفرج على معالم المدينة ومزاراتها ومساجدها ومتاحفها وقصورها وأسواقها وجزائر الأمراء والبوسفور ، ووصف كل ذلك في كتابه وصفاً شائقاً مسهباً .

وطالت إقامة المؤلف بالأستانة وتغلغل في حياتها ، وعرف الكثير عن حياة الناس بها ، وزار بصحبة الشيخ كردي الباب العالي ودوائر المابين ورجالات العرب في قصورهم واستمع إلى أحاديثهم وأخبارهم — يقول المؤلف : وأشار على صاحبي الشيخ كردي بزيارة الشريف حسين (الملك حسين فيما بعد) فقصدنا منزله بحي (بيوك دره) ، وهو كائن على ربوة عالية تحيط به حديقة انساعها تلاثون فداناً مصرية ... واستقبلنا أنجاله الكرام بلطفهم المعهود ، وجلسنا معهم بغرف السلاملك التي كانت مكتظة بالعرب والترك ... ثم دعينا إلى الغرف فوجدت بها موائد الطعام أشبه بما يوجد في الأفراح والولائم المصرية وكانت كثيرة .

يقول المؤلف : ولاحظت أثناء مروري بديوان النافعة (نظارة الأشغال) كثرة وجود المستخدمين بها الذين لم يكن لديهم عمل يعملونه ، وقد أخبرني أحد هؤلاء الموظفين بأن له عدة أشهر لم يقم بأداء عمل ، بل يحضر في الصباح ليقيم أمام منضدته التي يتركها عند انصراف الدواوين ولم تتحرك عليها يده بجرة قلم ، ولما سألت عن السبب ، قال إن المحسوبية وكثرة الانتساب إلى المقربين جعلت الدواوين أقرب إلى التكايا من نظارات للحكومة .

ثم اقرأ المؤلف وصفه لحفلة السلاملك (صلاة الجمعة)

(البقية على الصفحة التالية)

موكب الربيع

صاحي .. موكب الربيع قد اختا
ل طروباً على الربى وتثنى
وتمرى الجمال يهتك أسرا رآ ، ويبدى من الفاتن فنا
وصحت من رقادها بهجة الكو ن تعانق الجبال رقة معنى
وشدا الطير للضياء بحبـ
ـه ، ويلتقى على الزاهر لحنا
غازل الزهر فى الصباح ، وولى
فى الضحى باسماً يداعب غصنا
ورنا يسأل الأصيل .. لِمَ اصفرّ
كصب من لاعج الشوق مضنى ؟؟

• • •

أتى الروض بالحسان ، وقدتيـ ـن دلالاً فى غدوة ورواح
حالمات على الأرائك ينشقـ ـن مناهن فى نسيم الصباح
قد وهبن الحنان ، والنظرة السكـ
ـرى ، وريق الشفاه ... الأقاح

كم تفيض الخدود بالحسن .. منها
سال نور الحياة فوق البطاح
قد أذبن الورود لثماً ، فشمت حمرة الورد فى الشفاه الملاح
وسكبن الأنغـام تسرى مع الفجـ
ـر حنيناً على أكف الرياح

• • •

صـاحى .. هاهو الربيع ، فهيا
نتشى بالرؤى .. بسحر الغوانى
إملأ الكأس ، واسقنى خمرة الحب
وناغ الجمال فى كل آن
داعب الناى ، وابعث اللحن يشجى
بين تلك الصفاف صمع الزمان
واطرح الهم ضاحكا ، وغنى
فى ظلال الربيع أشهى الأمانى
لا تدع برهة تمر من العمـ ـر هباء .. فى ظلمة الأحزان
... مع اللهو ، واللذائذ ، واغنم
ساعة الفرح قبل فوت الأوان

محمد أحمد سالم

وكانت من أجمل حفلات الآستانة فى ... وأوروبا فيقول : ثم ذهبت والشيخ كردى إلى دائرة الحلج على باشا كبير المابين ... حيث أوقفنا مع بعض السائحين قريباً من محل خروج السلطان ، وكانت الجند قد اصطفت على الجانبين من الباب الذى يخرج منه السلطان إلى المسجد . وكانت الجنود تحضر بموسيقاها وبأزيائها المختلفة مدججين بالأسلحة المختلفة الأجناس ، ووقفت الفرسان بموسيقاها مصطفة جهة الميدان ومن خلفها عربات المتفرجين ... وكان الجند المحتشد فى تلك الساحة يزيد على الثلاثين ألفاً ... ثم فتحت البوابة الكبرى لسراى يلدز ، وخرج منها السلطان فى مركبته لابساً ملابس بيضاء ، وأمامه السر عسكر رضا باشا بملابسه الرسمية ، وحول المركبة الأمراء والوزراء ، وكبار رجال المابين يسيرون على الأقدام ... فنادى الجند دفعة واحدة بالسلام العسكرى (پادشاهمز چوق يشا) وبعدها سكت الجمع كأن على رءوسهم الطير ، فلم تكن تسمع إلا صوت المؤذن قائلاً : (الله أكبر) ... وعندما توسط الموكب الطريق نادى الجند بالسلام العسكرى مرة أخرى ، وكذلك عندما وصل السلطان باب المسجد ... فكان منظراً رهيباً يلقى الهيبة فى القلوب ، وأى منظر أرهب من هذا : ثلاثون ألفاً من الجنود شاكى السلاح ينادون فى نفس واحد بالسلام العسكرى ، حتى إن أصواتهم باجتماعها تشبه قصف الرعد ، والأمراء والوزراء وكبار رجال الدولة بملابسهم المزركشة ونياشينهم المرصعة ، يسيرون على الأقدام حول مركبة يجلس بها رجل نحيف الجسم ، شاحب الوجه ، مطرق الرأس ، ذو لحية كساها الشيب ، لا يلتفت يمنة أو يسرة إلا قليلاً ، وأمامه ناظر الحربية ، الرجل الممتلئ الجسم ، الكبير الرأس ، والغليظ الساعدين ، يضع يديه فوق بعضهما على صدره تأدباً وخشوعاً لمولاه ... وبعد انتهاء الصلاة عاد الموكب بالنظام السابق ، ثم عاد المؤلف إلى مصر فى نهاية شهر سبتمبر من نفس السنة ليعاود رحلته إلى تركيا وأوربا فى السنة التالية .

الدمرداش محمد

كتب قرأتها :

في موكب الشمس

عرض ونقد

للأستاذ حبيب الزحلاوي

تعود بعض علماء التاريخ ، وأكثر كتاب الفلسفة ، عدم الانطلاق مع سجيتهم في وداعة وبساطة عندما يخاطبون الناس ، إن في الصحف أو في كتبهم ومؤلفاتهم ، وألفنا سماع المؤرخين يسردون وقائع التاريخ سرداً رتيباً جافاً ، كما ألف كتاب الفلسفة الإبهام والغموض ظناً منهم أن لغة العلم إذا قربت من الوضوح والطلاوة بعدت عن سمت العلم وجلال الفلسفة .

تجلت صورة كتاب التاريخ والفلسفة في هذا العصر ، لجلت حين وقفت على كتاب « في موكب الشمس » ووقفت حيران أمام هذا الكتاب الضخم في التاريخ القديم ، وصفحاته تناهز الألف صفحة من القطع الكبير ، أأهمله كما أهملت قراءة مؤلفات من نوعه ، أو أوثره باهتمامي كما أوثر مؤلفه بحبي وإعجابي ؟.

الدكتور أحمد بدوي مؤلف هذا الكتاب ، عالم متخصص في التاريخ القديم ، إلا أنه مطبوع على حب الأدب ، ومنا كفة الأدباء ، ومجادلتهم في أدبهم ومناقشتهم في فنهم ، وإن أحلى ما يحلو له الظهور عليهم بفصاحته ، ووافر حفظه للشعر القديم ، والحديث ، وطلاقة لسانه ، وجلده على المكايدة والمغايظة ، هل أقف من هذا الصديق الشاكي موقف الجافل المتهيب ، أو أقرأ كتابه وأتوسل بأوهن خيوط العنكبوت لنقده ، ومحاسبته كما يحاسبنا هو ويشدد النكير علينا بكرديناليته وطيلسانها تارة ، ولسانه الحديد وبسمته الأكثر حدة تارة أخرى ؟.

استشهدت أولاً . ثم حوقلت ، وبسملت ، وتوكلت ، وأخذت في قراءة مقدمة الكتاب ، وهي لا تزيد عن ثلاثين صفحة ، فلم أعجب لهذا الإسهاب ، لأن كتاباً ضخماً كهذا يستأهل مقدمة ضخمة ، ثم تابعت القراءة ، ولكني ما كدت أقطع ساعة من الزمان حتى رأيتني مضطراً إلى العودة إلى الجزء الأول الذي كنت أهملته ، وما عتمت أن عدت إلى إتمام قراءة الجزء الثاني بكامل متونه وحواشيه .

ليست العبرة في الليالي الطوال التي صرفتها مكباً على القراءة ، بل العبرة في الجاذبية التي اجتذبني المؤلف بها ، وفي التخايل البارع الذي تخايل به عليّ وفي طريقة العرض الأخاذة ، وفي البيان الفصيح ، والأسلوب الواضح العذب ، وفي الخروج على المألوف في سرد أحداث التاريخ ، وفي التشويق أيضاً .

بهذه الخصائص التي لم أر لها ضريباً في كتاب التاريخ ، قديمه وحديثه ، استطاع الدكتور أحمد بدوي أن يستقيني من خمرة التاريخ القديم فأنتشي مما كنت أتوهم أنه المكر غير المستساغ ، وبهذه القدرة على الانطلاق مع سجية الرجل العالم الوديع البسيط ، استطاع أن يلقنني دروساً في تاريخ من خلقوا التاريخ ، ويطلعني على سير أسرات فيها النبيء صاحب الدعوة ، والملك المطلق يستمد سلطانه من نزواته وشطحاته ، ومن قوته واعتزازه بسطوته وجبروته ، وأخبار مفصلة للكهنة أصحاب السلطان الديني ، ولكل ذي صفات بارزة في خدمة الملك والدولة ، وفيها الجميل

الجامع ، والفصل الواضح للحروب المجوسية والدفاعية ، والحملات التأديبية ، وإخماد الثورات وغير ذلك من ضروب الكفاح التي لا قيمة لحياة ملك بدونها ، وفيها أيضاً أوصاف بارعة للفنون الفرعونية الباقية على الزمن ، من مسلات وتماثيل وأنصاب ، وفيها تحديد لقبورهم ومحتوياتها من تعاويذ وزوارق وسرر ووسائد ونعال وأثاث وغذاء ، مهيأة لاستقبال العالم الآخر ، وفيها تقرير لموقف مصر من جيرانها في حوض البحر المتوسط ، وشروح وتفصيلات دينية لمعتقدات بدأت طفلة مع تخيلات الإنسان البدائي وتوهماته ، وقد سايرته في تطوره الاجتماعي وتقدمه الفكري حتى أدرك الوحدانية ، لقد استطاع الدكتور أحمد بدوي بلباقته الأدبية ، وأسلوبه الشائق أولاً ، ثم علمه وأصالته في التاريخ المصري القديم ثانياً ، أن يقدم للقارئ هذا الزاد الشهي ، وأن يغريه لا بتذوق هذا الغذاء الدسم ، بل بالتهامه التهاماً ، لأنه لا محيد لطالب المعرفة عن الاغتراف من زاد أجداد الإنسانية الأوائل ، وهذا لعمري ضرب من التشويق والتحبيب ، ووسيلة إلى تشبيع النهم ، وتنمية الرغبة .

هي ذي كلة حق أقولها في متون هذا الكتاب الذي كنت أقرأ فصوله وكأني أقرأ فصولا من رواية من صميم الحياة ، محكمة الحبك ، مسلسلة الوقائع ، كثيرة المفاجآت والحوادث ، تنبض الحياة في كل إنسان يلعب دوره فيها .

• • •

قلت في معرض الكلام من صديق الدكتور أحمد بدوي إنه محب للمفاطنة ، جلد على المكايدة وأقول الآن إني لم ألمح فيه رغم لجاجته في المكايدة — طبيعة الغضب كما لمحتها ولمستها في كتابه هذا ، وكان بودي أن أنزهه عنها لأنها أبعد ما تكون عن طبيعة العلماء .

لقد غضب الدكتور بدوي في مواقف عدة من هذا الكتاب : من أجل فرية افتراها أحد علماء الآثار الغربيين على « أخناتون » إذ قال فيه « إنه كان يحب أخاه وإنه كان متورطاً معه في علاقة جنسية » .

ليس المستغرب في الدكتور بدوي أنه فنّد الفرية ، وذكر مصدرها ، وأقام الأدلة العلمية والفنية على أنها محض افتراء ونفاق ، وأن المفتري ومن نقل الفرية عنه لم يلتفتوا جيداً إلى شخصية « اخناتون » المفترى عليه ، لا من حيث إنه ملك من ملوك مصر ، بل من حيث هو نبي ، وصاحب دعوة إلى الخروج على ديانات موروثة ، وصاحب دين جديد ، رفع منارته ونشر لواءه ، وكيف علم تلك الأمة التي ألفت الانصياع والاستكانة والتي صاغرة وراء ملوكها ، بأن الفراعنة ما هم إلا بشر ، وأن رب فرعون ورب كل بشر ليس هو الشمس ، ولا الحيوان ، ولا المخلوقات الأخرى التي عبدوها ، إنما ربهم ورب فرعون هو الواحد الأحد الذي لا شريك له .

وليس المستغرب من المؤلف أنه لم يكتف بدفع تلك الفرية بالدليل والبرهان ، وقد كانا قويين دامغين ، بل المستغرب هو اندفاعه مع الغضب ، وخروجه على آية الله بقوله وجادلهم بالتي هي أحسن ، ورواحه يرهف شفار الظبا ، وينتضي سنان القلم ، ينقش بكيل الطعنات الداميات إلى عالم مصري مسكين ، يقول المؤلف عنه إنه « الأستاذ الكبير الدكتور سليم بك حسن » الذي نقل الفرية عن علماء الغرب الفرنسيين « ليقرأها الناس من أبناء هذا الوطن فيرون كيف كان ملوكهم يتورطون مع إخوتهم في أقبح عادة عرفها تاريخ الناس » .

لاشك أن الفرية شنيعة ، وأنه كان من الواجب على الدكتور سليم بك حسن أن يتنبه إلى غرض الغربيين من التمسك بها والتلف حولها ، أما ولم يتنبه وقد نقلها في كتابه على علاتها ، فقد صار من حق الدكتور بدوي أن ينبهه وأن يرده إلى محجة الحق والصواب ، لا بالعصا والسنان ، بل بالإقناع والدليل .

إذا كان لوم الدكتور سليم بك حسن حقاً ، فكذلك من حقنا أن نعاتب الدكتور بدوي لسكوته عن العالم « ركس انجليك » وهو أول من تندر بهذه الفرية ، الذي دعاه روح الدعابة إلى إثارة الشكوك في حياة « اخناتون » حينما رأى صوره المنقوشة في الحجر خارجة عن مألوف

ماعرف الناس من صور الفراعنة ، فتوهم فيه الشذوذ ، ولسكوته أيضا عن العالم الأثرى الأستاذ « نيوبرى » الذى راح يتلمس فى آثار عصر « اخناتون » مايمكن أن يبنى عليه رأى طريف فى شذوذ هذا الفرعون ، خصوصا عندما ينشر بحثاً فى هـذا الموضوع فى مجلة منتشرة بين علماء « الاجبتلوجى » وكان الواجب أن لايسكت عن هذين العالمين ، وأن يدحض أقوالهما بالحجة ، وأن يدفع الفرية بالبرهان ، وأن ينشر الدفع فى ذات المجلة التى نشرت الفرية ، وبذلك يكون الدكتور بدوى استأصل الداء واجتثه من أصوله وأطلع العلماء على الحقيقة ، أما إطلاق اللسان فى مؤرخ غير محقق إنما هو محض كلام تحول بحكم الغضب عن قصده وأصبح كلاما أقرب ما يكون من لغة الصحافة ومنطق التحزبين فى وقتنا الحاضر . اسمع مايقول الدكتور بدوى بالنص :

« أى والله ، كل ذلك قد ذكره أستاذنا المصرى الكبير سليم بك حسن ، ناسياً أو متناسياً تقاليد مصر الدينية والسياسية والاجتماعية ، كيف فاته كل ذلك وهو القارئ الدارس المتعصب لوطنه وقوميته ، وهو كما أعرف من صميم الريف ومن أبناء الشعب الذين خلفهم من تراب هذا الوطن وصورهم من طينه ورواهم من ماء نيله » . « هل نسى أستاذنا الجليل أنه يتحدث عن ملك » ثم يقول : « إنه يحزننى أن تشيع تلك الفرية فى كتب العلماء والمؤرخين ، ويحزننى أكثر من ذلك أن ينقلها ويسجلها قلم مصرى لتنشر على الملأ من أبناء مصر الذين يعيشون على تراث الفراعنة ، (كذا) وأن يكون فرعون وهو مليك الناس وإمامهم وخليفة الله على الأرض (كذا) صاحب هذا الإثم المنكر ... » .

أقف قليلا ، لا لأنقل نص ما قاله المؤلف فيما لقى زعماء الإصلاح من أنبياء وأصحاب رسالات سماوية منذ أقدم عصور التاريخ حتى عصرنا الحاضر من صنوف الاضطهاد والتعذيب والتشريد ، بالنسبة لما لقيه اخناتون النبى ، لأنى أريد أن أتخطى هـذا الفصل على عجل لأدفع المقارنة جيداً بين أصحاب رسالات صمدوا للاحداث حتى غلبوها ، وبشروا برسالتهم حتى انتصروا ، وبين اخناتون ذلك النبى المحقق « الذى أخذ يخفف من مظاهر التعصب لمذهبه وربه ، دفعاً لثورة الكهان ولأن دعوته لم تلق من النجاح ما كان ينتظر لها » — أقف لا لأسأل المؤلف بل لأتساءل : هل رمى الدكتور بدوى إلى جعل حديث فرية هذا الاخناتون كحديث الإفك ، أو أنه حملها أكثر مما تحمل بغية الاقتداء (؟) والتفاصح فى دحضها كما دحض الله حديث الإفك بالآية الكريمة ؟

أفهم أن تلك الفرية الشنيعة تجرح كرامة الملك فى رجولته وتغض من شرفه ، ولكنى لا أفهم كيف ولماذا تجرح كرامة الوطن ، ثم ما هى العلاقة بين أفعال الملك الخاصة وبين « كرامة الوطن المصرى كله » ؟

كم فى قصور الملوك ، فى كل عصر ومصر ، فى الغرب وفى الشرق ، من شبهات واقترافات ذكر بعضها التاريخ بتفصيل ووضوح ، وغمغم البعض الآخر غمغمة أشعلت فضول القارئ ، وحفزت خياله إلى الوهم والتلفيق ، فلم يغض ذلك من شرف الرعية ولم يجرح كرامة الوطن كله .

القصة مكذوبة لأنها قامت فى الأصل على التندر والدعاية ، وإن ما ينتج عن الباطل فهو باطل ، ولذلك — ما دام التاريخ حديث الانسانية وقصتها فيجب علينا كما يقول المؤلف « أن نتصور فيه الكذب ، والخداع ، والنفاق ، والمكر ، والرياء » ويقول أيضاً : « وبعد فإنه حرى أن يكون المؤرخ شديد الشك ، سيء الظن فى كل ما يتناول من قضايا التاريخ » بل إنى لأحمد للمؤرخ أن يقلب الشر إلى خير فى كثير من تلك الأخبار والقضايا » .

وإنى لأسأل صديقى الدكتور بدوى : هل هو يدعونا إلى أن نتصور فى كتابه وهو من صميم التاريخ « الكذب والخداع والنفاق والمكر والرياء » ، وهل هو سلك سبيل قلب الوقائع الشريرة إلى خير لأن التاريخ هو « حديث الإنسانية وقصتها » ؟ .

حكاية أخرى رواها المؤلف عن علاقة الملكة حتشبسوت بخادمها ، وأن تلك العلاقة كانت مشوبة بالشبهات ،

وأن ذلك الخادم كان صنو الملكة وخليلها كما يقول المؤرخون ، ولكن المؤلف — بدافع من التعصب فى هذه المرة لا بدافع من الغضب — يحاول تسويغ العلاقة كما يحاول دحضها ؟ فيقول مسوغاً : « إنى لأعذرهم — أى المؤرخين — فى ذلك لأن حتشبسوت وخادمها لم يخرجا عن كونهما رجلاً وامرأة ، يجوز عليهما كل ما يجوز على كافة المخلوقات من ذكر وأنثى ، ويقول داحضاً : «ولو أملك اليوم من الأدلة والشواهد ما يعيننى على تبرئة ساحة الملكة لما ترددت فى ذلك » ، لأنى أكره لحياة الملوك والحاكمين أن يصورها التاريخ على هذا النحو المريب الذى يربط حياة المحكومين ومصائرهم بالعلاقات الجنسية »

ثم حكاية ثالثة خلاصتها أن الحكومة المصرية كلفت المؤلف أن يسطر مذكرة بتاريخ العلاقة بين مصر والسودان بقصد الانتفاع بها فى مجلس الأمن ، وقد لبى المؤلف الطلب وقد انتفع الوفد الحكومى بتلك المذكرة ، ثم عاد الدكتور فاعتذر فى كتابه — خدمة للعلم وحرصاً على الصدق — مما سطره فى تلك المذكرة التى توسل بها الحاكم فى تأييد حق لمصر ، وحجته فى ذلك أنه لا يريد أن يثبت لمصر حق المستعمر فى السودان !! .

ما أكثر ما فى هذا الكتاب من معلومات ومفارقات تستوقف القارىء وتستدعى انتباهه . بل ما أكثر ما فى صدر مؤلفه من معارف جمة ، وأفكار مختمرة ، وآراء صائبة تلمح تهافته على الإغداق فى عطائها ، والسخاء فى منحها ، والتعجل فى بثها ، وهكذا بينا هو يحدثنا فى التاريخ وإذا به ينتقل بنا إلى موضوع حب الناس للحياة الدنيا وتعلقهم بها ، وخوفهم من الآخرة فيقول :

«تلك حقيقة لا مفر منها ، فالحياة خير من الموت ، وهى على ما فيها من شر ، خير ألف مرة ومرة من الموت . بل لا سبيل مطلقاً إلى المفاضلة بينهما ، فنحن نعرف إلى شر الحياة خيرها أيضا ، على حين لاندرى عما وراء الموت خيراً ولا شراً ، ولكنه قضاء الطبيعة لامرد له ، وقد جعل الموت آخر كل حى » .

ويقول يشيد فى قدماء المصريين : « ... فأنا أشعر — وأجرى على الله — أن الله قد أحب ذلك الشعب وأكرمه ، ولو كان قد كرهه إذاً لأنسى الناس ذكره ومحا من الأرض آثره ، فذكره حى خالد ، وآثاره من أوتاد هذه الأرض» .

ويصف عصر محنة يماثل عصرنا الحالى فيقول : «وأصبحت الأمور فى حال من الفوضى ، أقل ما يقال فيها أنها جرت على البلاد ... جزاء ما قدم زعماؤها من أسباب الخلاف بين يدى الأيام ، وهكذا منطق الزمان وقضاؤه فى مصير الأمم حين يقع الخلاف بين زعمائها ، وحينما تضطرب فى نفوسهم شهوة الحكم فتعمى قلوبهم وأبصارهم عن الحق الواقع ، وتصرفهم عن كل خير ...

وكذلك وصف مقارن بين « وحدة عربية » وجهود مصرية تحت أيام حكم الفراعنة بوحدة طوت مصر وفلسطين والشام وبلاد النهرين وأقاليم النوبة والسودان وواحات الصحراء الليبية تحت راية واحدة ، وبين « جامعة الدول العربية » القائمة ، وقد ختم الكلام عنها بقوله :

« وبعد فإنى أرجو أن تكون « جامعة الدول العربية » قد شبعت من قراراتها وأسفارها ، ومؤتمراتها وجلساتها ، وحفلاتها وولائمها ، وأن يكون زعماؤها قد اقتنعوا بأنهم مغرورون ، وأنهم قد يكونون قد ملوا سياسة الكلام بعد أن ملتها الدنيا ، وضحكت منها الأيام ، وسخرت منها الحوادث ، وأن تكون الجامعة قد عرفت قيمة شعوبها ، وقدر نفسها ، وفكرت فى أن الأوان قد آن للتحول إلى سياسة العمل المنتج ، وأنها قد زعمت كثيراً ، وتكلمت كثيراً ، وأن القول إذا لم يتبعه العمل ذهب مع الريح » .

وبعد فهذا كتاب حافل ، كما رأيت ، بصنوف من التاريخ ، والأدب ، والسياسة ، والاجتماع ، يخاطب مؤلفه القراء تارة بأسلوب تقريرى وتارة بأسلوب أدبى ، ومرة بأسلوب الخطابة والوعظ ، ومرة أخرى بأسلوب النقد واللمز ، وهو فى الحقيقة ليس كتاب تاريخ وحسب ، بل هو كناشة غنية وسعت بعض علوم وفنون ضاق بها صدر المؤلف فدونها فى الحواشى والتعليقات بوضوح وقوة وجمال .

حبيب الزحلاوى